عين الكاميرا: نصوص من وحي الانتفاضة

عادل الاسطة

يضم هذا الكتاب النثري مجموعة من النصوص النثرية التي أنجزتها منذ تموز العام 2000 ويأتي أكثرها على واقع حياتنا إبان انتفاضة الأقصى وأدرجها هنا معاً لباحث أو دارس يرغب في دراسة واقع الفلسطينيي ن إبان الانتفاضة والنص الوحيد الذي يخرج عن أجواء النصوص الأخرى هو نص: تفاصيل ذلك اللقاء. وقد أنجز قبل اندلاع الانتفاضة.

تفاصيل ذلك اللقاء

إلى روز وفائزة
ذكرى لقائنا في (فيينا كفي)
بعد أحد عشر عاماً

منذ شهرين وأنت تحاول الكتابة. منذ شهرين تفكر في فاتحة النص. ومنذ شهرين تسأل نفسك" ما الذي أكتب عن ذلك اللقاء؟ وكيف أكتب؟ وهل يجوز لي أن أكتب؟

منذ شهرين تريد أن تكتب قصة فتخونك البدايات. تحاول أن تكتب نثراً فلا يساعدك القلم على خط الجملة الأولى. تريد أن تكتب مقالاً فتختار الكتب المناسبة لتجعل منه مقالاً يليق بذلك اللقاء.

ومنذ شهرين تقول: أكتب رسالة أبث فيها مشاعري وأفكاري وأعزز ما قلته في ذلك اللقاء، أوضح أشياء ظلت غامضة، أفصح قليلاً عما لم أستطع الإفصاح عنه، أتابع، على الورق، عبر الجريدة أو المجلة ما كنت بدأت ولم أستطع إكماله. هل حقاً ذلك الحوار لم يكتمل؟

***

كيف لم تأسرك المدينة التي رأيتها بعد غياب طويل طويل؟ المدينة التي يقول الناس عن أحيائها الغربية، إنها أحياء أنظف من مدينة باريس. وأول ما رأيت من المدينة أحياؤها الغربية. لقد أصبحت عمان لأهل مدينتك التي تقيم فيها، مثل أريحا شتاءً لأهل رام الله والقدس، للأثرياء منهم، فالفقراء لا يعرفون، منذ ولادتهم، إلا القبر. لكأنهم جحا يقص على ابنه، وهما سائران في جنازة، أنهما ذاهبان إلى بيتهما، وهناك سيدفن الميت.

كانت الساعة الحادية عشرة من صباح الجمعة حين هاتفت للمرة الأولى، وكان الإرباك واضحاً. لا بأس قلت، فلأكن صبوراً. وكان عليك أن تكون صبوراً، لأن الصبر هو سلاحك في مواجهة حماقات هذا العالم؟ العالم القاسي الذي لا يرحم إطلاقاً.

ولأكن حذراً، قلت أيضاً وأنت تهاتف، فالهاتف، لا شك سيكون مراقباً، أو أن آخرين سيصغون إليه، إذا كان الهاتف من ذلك النوع من الأجهزة التي تمكن غير مستمع من أن يصغي. لقد فقدت البراءة منذ زمن، وكان عليك أن تصبح حامل إرث مائة عام من الملاحقة والحصار والطرد والاشتباك والمساءلة. وكان عليك أن تحمل عبء اثني عشر عاماً من المراقبة. (ما زلت تذكر جيداً أنك في عام 1991، وأنت في ألمانيا، أنفقت مئات الماركات لتعرف من خلال محادثة الآخرين ما يدور حولك). وكان يحزنك أن تقول هذا، ويحزنك أن

تعيش الطفلتان اللتان لا ذنب لهما في كل ما يجري، يحزنك أن تعيشا هذا الواقع المرعب الذي عشته.

(في (فيينا كفي) أو مقهى (فيينا) قلتُ لروز وفائزة إنني حين أهاتفكما أشعر بمرارة، وأنفق الليل ضجراً مكتئباً، ولهذا أوثر ألا أهاتفكما)، ولربما أدركتا هذا فكفتا عن المهاتفة.

(في فيينا كفي)، في فندق عمرة تذكرت الأسطر التالية من إحدى قصائد زياد:

وأعطي نصف عمري
للذي يجعل طفلاً باكياً
يضحك.)

وأردْتَ ألا تبكيا.

***

حين ردتا على الهاتف في الساعة الثانية عشرة، قالتا: (o.k.). وأضافت روز: نلتقي في الساعة الرابعة في الكوفي شوب، في فندق عمرة.

وضعت يد الهاتف في مكانها، وذهبت لتذرع شوارع عمان. كنت تحمل حقيبتك وتســـــير في شوارع المدينة التي لم تزرها منذ سنوات طويلات. كأنك تعرف المدينة ولا تعرفها. ثمة تغيرات في وسطها. ثمة جســـــور ما كانت من قبل ستة عشر عاماً. وكانت الشوارع، يوم الجمعة، في الصيف القائظ من تموز 2000، خالية إلا من ســـيارات قليلة العدد، وحين وصلت إلى وســـــط المدينة صعدت إلى مقهى السنترال. كان المقهى غير ذاك الذي تعرفه يوم كنت تذهب إليه، أحياناً قليلة، في صيف 1976. بدا المقهى مقهى فقيراً بائساً فيه بضعة عمال يقدمون الطلبات على استحياء وخجل. عمال كانوا ودودين صامتين. لم تمكث في المقهى أكثر من ساعة، غادرت بعدها إلى مطعم القدس لتناول طعام الغداء، لتعود، من ثمّ، إلى المقهى نفسه. كان الأستاذ الذي التقيت به، وهو مدرس تربية في جامعة النجاح، قد غادر. اخترت مكاناً منزوياً تنفق فيه ساعة ساعتين، حتى تحين الرابعة، ولم تستبد بك رغبة في قراءة الجريدة. كنت تبحلق في الزبائن وتصغي إلى لهجة العراقيين، وكان قسم من هؤلاء يمارس الكتابة. لقد أخذ هؤلاء يتحدثون على مسمعك عن مجلة " الشعراء " التي تصدر في رام الله عن بيت الشعر، وأظهروا أيضاً نشرة تحمل مفردة أوراق تتلوها مفردة أخرى لم تتمكن من قراءتها، ويبدو أن هؤلاء يصدرون هذه الأوراق ويوزعونها مقابل ثمن، وقد تذكرت عنوان الكتاب الذي كنت ستصدره تحت عنوان " أوراق نقدية ".

ولم تحادث أياً من هؤلاء العراقيين. كنت تتابع حركاتهم، وتصغي إلى لهجتهم، وتنظر إلى ملابسهم التي ستكون وهم، موضع قصيدة رديئة ستكتبها في (الميرلاند) حيث أقمت وأنت في عمان، وستقارن بين هؤلاء وبين خليجيين رأيتهم في فندق عمرة، قصيدة مزقتها لأنك لا ترغب في أن تكون شاعراً رديئاً، وستشعر، بعد تمزيقها بندم ما، ولكنك ستعيد كتابتها لأنها ظلت تلح عليك.

وكنت متلهفاً لذلك اللقاء، فأنت لم تَرَ روز وفائزة منذ أيلول 1989. وقد سرقتا، يوم ودعتهما في مطار (فرانكفورت) قلبك الذي تحول مع الزمن إلى قطعة صخر. هل ذاب حبهما كما تذوب قطعة الصابون؟ (قال لك، ذات نهار، رجل من نابلس، وقد رآك حزينا جداً لموت أخيك الأكبر: الحزن مثل قطعة صابون يذوب مع الأيام، وكأنه أخذ يؤكد المثل الشعبي: البعيد عن العين بعيد عن القلب).

تركت مقهى السنترال مبكراً. تركته في الساعة الثالثة لتنفق ساعة في مقهى آخر، في موضع آخر. وحين وصلت فندق عمرة سألت عن الكوفي شوب، فأخبرك أحد العمال إنه محجوز ولا مجال للجلوس فيه هذا النهار. ولم تكن (فيينا كفي) بعيدة، ولكنك آثرت أن تسأل، ابتداء، عن أسعار المبيت في فندق أربعة نجوم، وكنت سمعت أن هذا الفندق يمنح أبناء الضفة الغربية سعراً خاصاً. ولمّا أجابك موظف الاستقبال عن سؤالك آثرت الانسحاب بهدوء، فهذه الأماكن ليست لنا، على الرغم من أنك تقدر على دفع مبلغ إقامة عشرة أيام، بل وتكاليف إقامة سنة كاملة دون أن تستدين. خاطبت نفسك: لماذا هذا الترف؟

وجررت حقيبتك وسرت باتجاه المقهى. نظرت في الساعة، ولاحظت أن الرابعة لم تحن بعد. ما زال هناك متسع من الوقت. جاءك النادل الأنيق وسألك عن مشروبك، فاعتذرت وقلت له: إنني أنتظر آخرين وسنشرب معاً. وغادر بلطف واضح.

وأخذت تحملق في الوقت والناس، وكان بودك لو تكتب شيئاً ما. (فيما بعد كتبت أيضاً قصيدة رديئة مزقتها، قصيدة قارنت فيها بين مقهى ومقهى، وذهبت فيها إلى أن المدينة هذه شرقية وغربية معاً. وقلت إنها عالمان أيضاً: عالم الفقراء وعالم الأغنياء، ولم تشعر شخصياً بغربة عن هذا المكان، كما لم تشعر أيضاً بغربة عن المكان الأول. لقد عشت حياة الفقراء، وعشت حياة الأثرياء، وأنت الآن لا تنتمي إلى أي من العالمين. أنت تشعر بالعطف على الفقراء، ولا تقوى على حياة الأغنياء، ربما بسبب ماضٍ ما، ربما بسبب بقايا أيديولوجية، ربما بسبب شعور دفين تشكل على مدى الأيام، شعور يوحي لك بأن هناك ظلماً ما، اســــتغلالاً ما، ربما بسبب كتابتك التي حين تعود لتقرأها ترغب في أن تظل منسجماً مع

ذاتك. (وحين قلت هذا، فيما بعد، لابنتي روز، هذه التي بدت ذات تطلعات برجوازية، بسبب إقامتها في عمان الغربية، سألتني إن كنت أحب الفقراء إلى هذا الحد).

(وبدأت أنتظر روز وفائزة).

وأخذت تنظر إلى رواد المقهى القليلي العدد، وإلى موظفيه الأنيقين، وبدأت تحملق في الشارع وفي الأماكن المحيطة. وحين جاءتا، بصحبة خالهما، آثرت عدم إزعاجهما. مدّ خالهما يده فصافحتها حتى لا تفسد للقاء رونقه، وحتى لا تشعرا بالخيبة منذ اللحظة الأولى. كان لا بد من هذا.

قرب الطاولة التي جلستم على مقاعدها المحيطة أخذت تنظر إلى اللائحة التي علقت على عمود، ولم تلتفت كثيراً إلى أحرف اللغة الإنجليزية والإشارات الموجبة والسالبة. تماماً كما أنك لم تلتفت إلى موظف الفندق الذي أخذ يضع في بيضة الزجاج تفاحاً أخضر اللون. للحظات لم تعرف ماذا تقول. أخذت تنظر إلى حقيبة روز اليدوية ذات اللون القريب إلى السماوي، وأخذت أيضاً تنظر إلى لائحة المشروبات. وكانت اللائحة المعلقة على العمود تثير لديك شكوكاً ما. وحين أخذ النادل ينظفها ويحركها من مكان إلى آخر، أخذت تقرأ ما هو مكتوب على قطعة القماش التي كانت بيده، وكان يستخدمها لتنظيف الطاولات واللائحة. كتب على القطعة:

(Don't drink anything)

ولكنك لم تكترث.

مرت دقائق دون أن يكلم أي منكم الآخر. كان الصمت يسود، وكدت للحظة تبكي، ولكنك تماسكت، وحين أدركت أنك ستتكلم بثبات وهدوء، دون أن تنم حركات صوتك عن ضعف ما، بادرتهما بالسؤال عن صحتهما. أردت أن تكسر حاجز الصمت، وأردت أن تخرج من الحالة التي تلبستك. كأنك تمثال شمع. كأن الدمَ الذي في عروقك تجمد. هل كانت المفاجأة مربكة؟ أنت لا تدري. ولا تدري أيضاً لماذا لم تفصح عن مشاعرك. لم تقترب منهما لتلامس وجنتي كل منهما كما يفعل الآباء. كأن الأبوة قتلت فيك لأنّ الآخرين قتلوها. اكتفيت بملامسة الأيدي ومصافحتها، وكان هناك سبب آخر لذلك. كانتا شابتين يافعتين، وآثرت أن تحترم سنهما في مقهى عام.

حين جاء النادل نظرت، من جديد، في لائحة المشروبات، واخترت البوظة دونما مساءلة، ودونما تفكير في الدلالة الرمزية للبوظة في الحياة الفلسطينية، ولدى المثقفين تحديداً. (كنتُ شخصياً أوضحت هذا في نصي النثري " خربشات ضمير المخاطب "(1997) ولا ضرورة للتكرار). ولم تكن العبارة المكتوبة بالإنجليزية لتؤثر فيك، ولا تدري إنْ كانت روز

وفائزة قد التفتتا إليها، ولكنهما حين طلبتا العصير لم تشرباه. وذهبت بي الظنون مذاهب شتى. أهما خائفتان؟ أهما تشكان في أمر ما، أتكونان قد التفتتا إلى الملاحظة خلسة؟ أيكون أحد ما طلب منهما ألاّ تشربا شيئا؟

حين بدأتا المحاكمة، محاكمة الأبناء للآباء، قلت لهما: لم آتِ لكي أفتح جروحاً. إنني قادم لأراكما فقط. وكنْتَ شخصياً لا ترغب في الحديث عن أي شيء يفسد للقاء بهاءه. وكانت فائزة سليطة لسان ولم تشأ أن تكون معها فظاً، علماً بأنك يمكن أن تكون فظاً مع أي إنسان في هذا الكون مهما كبر سناً ومكانة، إذا كان سيء الأدب. قلت لنفسك: لتكن هادئاً ما أمكن، فمهما قالتا فمعهما الحق. لقد عانتا من فقدان الأب أحد عشر عاماً، ومن حقهما التعبير عن غضبهما. وكنت تعرف أنهما ربما تحملتا من أذى الآخرين ما تحملت أنت. قلت لهما: أعرف أنكما غير ملومتين، ولكن كان عليكما أيضاً أن تصغيا إلى رأيي الذي لم تسمعاه، ولا ضرورة الآن لأن تسمعاه. ولم تقل شيئاً.

أحياناً لا تعرف كيف تخاطب الآخرين، وبخاصة ممن لا تعرف بالضبط مزاجهم. لقد كانتا يوم ودعتهما طفلتين، وها هما، الآن، شابتان يافعتان. كنت في (بامبرغ) تأخذهما معك إلى سوق المدينة، تشتري لهما البوظة والملابس، تصطحبهما إلى منازل الطلبة والطالبات من أصدقائك، وتسير معهما على رصيف النهر بين أشجار الغابة. كنتم تنفقون الوقت معاً، وفجأة لم تعد تراهما. أحياناً تصغي إلى صوتهما، وقد تمر سنوات دون أن تحادثهما هاتفياً. أنت تعيش عالم الضفة والاحتلال، وهما تتعلمان، في عمان، في مدرسة خاصة لا يعرف روادها شيئاً عن عالمك. لقد سار كل في اتجاه. كيف يلتقي عالمان غريبان ولا يشعران بالغربة.

وكنت، دائماً، وأنت تذكرهما أو تتذكرهما، تتذكر رواية غسان كنفاني " عائد إلى حيفا "، ومسرحية (برتولد بريخت) " دائرة الطباشير القوقازية "، تماماً كما تتذكر رواية " الأم الثانية " لكاتب روسي، رواية كنت قرأتها ثم تبرعت بها لأحد الأندية لعل قارئاً آخر يفيد منها. وخاطبت نفسك: لربما تشعران الآن بمشاعر الأبوة ولكن ليس نحوك، وإنما نحو قريبهما الذي تريانه كل يوم، أما أنت! فمن أنت؟ أنت رجل هبط من السماء فجأة. رجل بذر هاتين وعاش معهما سنوات قليلة، ثم سار باتجاه آخر حين غادرتاه. وعلى الرغم من أنك كنت أسيرهما لسنوات إلاّ أنك أخذت تستحضر عوالم مشابهة.

تذكرت خلدون في رواية كنفاني، وتذكرت والده سعيد. س. تذكرتهما وتذكرت الحوار الذي جرى بينهما، وهو حوار غالباً ما تعود إليه حين تدرس " عائد إلى حيفا "، وتسأل نفسك: هل أنا والد حقيقي؟ قال خلدون لأبيه سعيد: لو كنت أباً حقيقياً لعملت على استعادتي. ماذا فعلت خلال هذه السنوات سوى الانتظار والبكاء. عاجزون. عاجزون.

وأخذت تسألهما عن دراستهما. وقلت لنفسك: لأتحدث معهما حديثاً يقرب بيننا، لا حديثاً يخلق جواً من النفور. وكنت تنظر في ملابسهما، في تعابير وجهيهما. كأن كل شيء معد سلفاً، كأن الذين يخطئون بحق غيرهم لا يكتفون بهذا. إنهم يحولون الأبرياء إلى ضحايا، ضحايا قد تغدو شرسة أيضاً.

حين سألتك إحداهن: لماذا لم تزرنا هذا المدة كلها؟ لم تترك لك فرصة الإجابة، فسرعان ما تابعت: أنت لم تأت لأجل رؤيتنا. لقد جئت من أجل المشاركة في مؤتمر ما، وانتهزتها فرصة. " ليكن " أجبتها، " وها قد جئت أخيراً. لقد انتظرت أن تأتيا إلى المكان الذي ولدتما فيه، ولكنكما لم تأتيا، وكان علي أن أعمل بما قرأته: " إذا لم يذهب محمد إلى الجبل فعلى الجبل أن يذهب إلى محمد " (للأسف لم أسمع هذا القول وأنا أعيش في الضفة، وإنما قرأته في كتاب المســـتشـــــرقة الألمانية (آنيماري شيمل) " محمد رسول الله " أو في كتاب (رودي باريت) " محمد والقرآن "، وظل عالقاً في ذهني، وأحياناً أقول إنه مثل شعبي، وما هو بمثل شعبي، والدكتورة (آنيماري شيمل) تبين في كتابها مكانة الرسول لدى المسلمين، وكنت أرغب في أن أترجم هذا الكتاب إلى العربية). ولما لاحظت أنهما لم تفهما المثل جيداً، أوضحته لهما، لأبين لهما مكانتهما لدي. " وها أنا جئت، ولا ضرورة لشرح أسباب تأخري. لقد انتظرتكما طويلاً. لقد قمت بواجبي إزاءكما، ولم تقوما بواجبكما إزاء أبيكما ".

وأخذت تذكرهما بماضيك معهما. قلت لروز: أتعرفين لماذا اخترت لك الاسم روز؟ وصمتت فهي لا تدري. قلت لها: لا أدري ما هي أخبار روز تلك الفتاة الصغيرة التي كانت تزور جامعة النجاح الوطنية مع والدتها، يوم كان والدها في السجن ينفق من عمره خمس سنوات. لقد سماها روز تيمناً باسم (روزا لوكسمبورغ)، يوم كان والدها في فصيل فلسطيني يساري. واستلطفت اسمها فاخترته لك ".

لقد كنت صديقاً لأبيها الذي كان مناضلاً صلباً ضد الاحتلال، ولكنه انتهى نهاية بائسة. لقد قال رفاقه إنه سلب أموال الفصيل وهرب، وغدا الناس يذكرونك به كلما ظنوا أنك اختلفت مع رفاقك، وأنك ستغادر لتقيم في الأردن أو في غيره من البلدان. (الحقيقة أنني حتى الآن لم ألصَّ أي قرش من أية جهة فلسطينية، وعشرات الذين يوجهون لي هذا الاتهام لَصُّوا مئات الآلاف، وهم يحاربونني أحياناً كثيرة لسلاطة لساني، ولإذاعة أخبارهم التي يسردها اصحابهم لي، وهم أنفسهم يسردون هذا على مسامع أصدقائهم).

كيف كان الوقت يمر؟ أنت لا تدري. ولكنك تعرف أنك كنت ودوداً جداً. كنت تتأمل فيهما. كنت تصمت تارة، وتحاورهما طوراً. وكانتا لا تجيبان إلا بمقدار، ولا تتكلمان إلا إذا استدرجتهما للكلام. وكانتا هادئتين إلا في بعض اللحظات التي كانت فيها فائزة تبدو شرسة

خلافاً لروز. قلت لهما: كأنما ما زلتما كما كنتما، ووجهت الحديث إلى روز: لقد كنت أطلب منك أن تردي عليها حتى تكوني شرسة مثلها. وسألتهما عن العلاقة بينهما. سألتهما إن كانتا صديقتين تحبان بعضهما.

وكنت، وأنت تلاحظ أنهما لا تشربان العصير، كنت تطلب منهما أن تشرباه. ومددت يدك إلى كأس وشربت. هل كان خوفك ينتقل إليهما بالوراثة؟ إن أكثر ما سيفعله العصير أو ستفعله البوظة لن يزعجك كثيراً. ستسهر الليل ولا تنام إلا ساعة الفجر، هذا إذا كان الموظفون في الفندق، أو من يقف وراءهم قرأوا روايتك " تداعيات ضمير المخاطب "، أو نصك " ليل الضفة الطويل "، وإذا ما قرأوا " الوطن عندما يخون " فقد يضعون مواد في شرابك أنت تؤثر على صغيرك سلباً أو إيجاباً. (بعد ثلاثة أيام تقريباً، حين كنت في إربد، في فندق الجود زارتني في المنام امرأة، ومسني الشيطان، وصحوت على إثرها وقد تبللت ملابسي الداخلية، وآثرت أن أتركها في الفندق، يوم تركته، قلت لعلهم يأخذونها إلى المختبر).

وحين ودّعتاك، بعد ساعة، جلست وحدك للحظات. دفعت فاتورة الحساب وأخذت تتأمل في عمان، وحين ذهبت في اليوم التالي، إلى مطعم هاشم لتأكل الفول، وهي عادة كنت تمارسها قبل سنوات طويلة، كتبت مقطوعة شعرية رديئة مزقتها، فيما بعد. وهناك في مطعم هاشم حيث الاكتظاظ رأيت سائحة أجنبية وحيدة، وسط غابة من الرجال. لم تلتفت إليها كثيراً، فأنت لا تعرفها، وجلست إلى طاولة في داخل المطعم، وأخذت تقارن بين عالمين. وكان العامل المصري أكثر من لفت انتباهك. كان فرحاً جداً. كان يقدم الوجبات للزبائن وهو يرقص على إيقاع أغنية، وكان يكرر كلماتها، وتخيلت للحظات أن العالم كله خال من الهموم. ولم تمعن النظر في كلمات الأغنية التي غلب عليها الإيقاع، ولم تشغل نفسك في كثير من الأغاني التي يطرب لها الجمهور على الرغم من تفاهة معاني كلماتها. الناس أحياناً يأسرها الإيقاع، وليس من الضروري أن تطرب دائماً للكلمات الجادة.

في اليوم التالي تجدد اللقاء. التقيتما في المكان نفسه. جاءتا أنيقتين، كما لم تكونا في اليوم الأول، ولم تلتفت في اليوم الأول إلى أمر ما. غضضت الطرف عنه لأنك ببصيرتك أدركت أنهم يرغبون في معرفة فعلك إزاءه. في اليوم التالي جاءتا وحدهما، وجلستا إلى الطاولة التي اخترت أنت أن تكون اليوم في المكان المقابل لمكان الأمس. سلمتا وواصلتم الحديث. سألتهما عن لقاء الأمس، ولاحظت أن فائزة ترتدي بنطالاً قصيراً كتب على جانب منه (Superstar) وســــألتها، بعد دقائق، إنْ كانت تعرف معنى الكلمتين فأجابت: معناهما (نجم كبير). وتواصل الحديث. كانت روز أكثر هدوءاً من الأمس، وكذلك بدت فائزة. وحين

انقضى الوقت سريعاً قلت لهما: سأتصل غداً على أمل أن نلتقي. ولما سألتاك إلامَ ستبقى في عمان؟ أجبتهما: سأبقى ما دمتما تأتيان، وفي الوقت الذي ستعتذران سأغادر.

لم تكن وأنت تدفع فاتورة الحساب تكترث للمبلغ. كنت تدفعه كما لو أنه سيجارة يدخنها مدمن، ولكن ما اثارك ولفت انتباهك هو هذا الفارق الواضح بين جلوسك هنا وجلوسك في مقهى السنترال. كنت هناك تجلس صباحاً وتشرب الكوكا كولا وتدفع ثلاثين قرشاً فقط. وكنت تمعن النظر في المكان وفي النادل. وكنت تتذكر مقولات قديمة. عمان مدينة الفقراء والأغنياء. هؤلاء يعيشون فيها وهؤلاء أيضاً. يعيش فيها من يكون دخله مائة دينار ويعيش فيها من دخله ألف دينار. وتذكرت قصة كتبتها عن قاع المدينة عام 1981؛ قصة عنوانها " الخروج عن الرصيف "، وقد أسميتها فيما بعد " حلم عابر ". كتبتها يوم أردْتَ إصلاح العالم، يوم كنت تحلم بأن تثور الجماهير على أوضاعها، يوم كنت طالباً يكرر مقولات الطلاب " لا تثق بمن هو فوق الثلاثين "، ومع ذلك كنت تحلم بعالم آخر، بعالم يثور فيه حتى من هم فوق الثلاثين. وها أنت الآن تمارس السلوك الذي كنت، في حينه، تدين من يسلكه. وسرعان ما تعود بذاكرتك إلى ألمانيا، وهناك كنت تجلس في أماكن نظيفة كهذه التي في (فيينا كفي)، دون أن تدفع مبالغ مرتفعة. تذكرت مقاهي الطلبة في (بامبرغ) ومقهى (لوبوك) في (بون). وفي مقهى لوبوك كنت تنقد النادلة ماركين فقط ثمن فنجان قهوة، كما لو أنها – أي الماركات – ثلاثون قرشاً، وكنت تجلس جلسة مريحة جداً. هل تعلمت هذا النمط من الحياة هناك، في ألمانيا؟ تسأل نفسك، وتضيف: ولماذا لم أكن هناك أشعر أنني برجوازي؟ وكنت تعرف الإجابة.

(حين عدت إلى فندق (الميريلاند) جلست على الكرسي وأخذت أخربش مقاطع شعرية رديئة مزقتها فيما بعد، وحين اتصلت في اليوم التالي اعتذرت روز وفائزة عن المجيء. كأنهما كانتا تكرران سلوك آخرين كانت لي بهم قبل سنوات صلة ما. لقد كانتا فأرتي تجارب، وأراد الآخرون، من خلالهما اختبار ذاكرتي).

ولم تحزن كثيراً لاعتذارهما. قلت: لو أنهما أتيتا لتعرفتا عليك أكثر. وأخذت تمارس عاداتك القديمة. أخذت تتصعلك في شوارع عمان. أكثر عاداتك حباً إلى نفسك: المشي في الشوارع والبحلقة في الناس وفي واجهات المحلات والإصغاء إلى الأصوات العديدة؛ أصوات البشر وأصوات السيارات، فالمنزل أحياناً يكون قبراً، ولا بد للسجين فيه من فسحة، من فوْرة على حسب مصطلح السجن. أخذت، وقت الغداء تذهب إلى مطعم القدس، وقد تذهب، بعد ذلك، إلى حلويات حبيبة القريبة من مقر البنك العربي، وسط العاصمة. وأما زيارة كشك أبي علي فهي عادة لا بد منها. حين التقيت أبا علي سألته إن كان يذكرك. وذكرته بالأيام الخوالي،

بالأعوام 1982/81/80، وذكرته ببعض الأسماء من الأدباء. في تلك الأعوام كنت واحداً ممن يشترون الكتب الصادرة حديثاً، الكتب التي كان يحضرها أبو علي لأسماء معينة تهتم بما يصدر في بيروت، ومن كشكه اشتريت كتب غالب هلسة التي ما زلت تملك قسماً منها، أما قسمها الآخر فقد أهديته لزميل قاص كان يحب أن يقرأ لغالب هلسة، وهو الذي عرفك بكتاباته، ربما لأنه درس في مصر وتعرف عليه هناك – من كشك أبي علي قرأت (غابرييل غارسيا ماركيز) قرأت " مائة عام من العزلة " التي أرسلتها إلى أبي روز في السجن.

حين عدت من إربد، يوم الجمعة، بعد غياب أربعة أيام، اتصلت من جديد. سألت روز وفائزة: أترغبان في الاجتماع معاً، من جديد. لم تمانعا إطلاقاً. قالت فائزة: o.k، وكذلك قالت روز من قبل. وأضافت فائزة: في نفس المكان، فتذكرت نجاة الصغيرة وصديقك نفّس. تذكرت مقطع أغنية نجاة، وتذكرت ذلك الصديق الذي نعت بأنه نفّس وغلبت عليه هذه الصفة، ونفّس غالباً ما يشتم ذاته ويستخدم في شتمه ذاته مفردات بذيئة، وهذا ما تفعله أنت أحياناً قليلة، لا تقليداً، ولكن حين تستبد بك الأحوال. وأحياناً تستخدم مفردات سيئة حين تقطع تؤدي معاني أخرى مختلفة. (فيما بعد في اتصال هاتفي مع روز شتمتها واستخدمت مفردات إن قطعت تؤدي معاني مختلفة كلياً عن الظاهر، وكنت أوردت في نص خربشات بعض عبارات والدي لي، حين كنت أسمعها منه أقطعها لأفهم منها معنى مختلفاً).

(في الخامسة من مساء الجمعة جاءتا. جاءتا هادئتين وديعتين، ولكنهما لم تحضرا لي ما كنت طلبته منهما. ولم توافقا على أن تعودا معي إلى الضفة. هل كان ما قلته في أثناء هذا اللقاء مثيراً، مقلقاً، مخيفاً؟ ما زالتا لا تشربان العصير. كأنهما تخافان من شيء ما). كنت تنظر إلى جلسة روز وملابس فائزة وتتابع حركاتهما. قلت لنفسك: عليك ألا تتعامل بالرموز والإشارات. عليك ألا تكون سيميائياً، على الرغم من أن الآخرين منذ اثني عشر عاماً لا يتعاملون معك إلا سيميائياً، وأنت الآن تعتقد أن ما من شخصية في العالم تعومل معها سيميائياً قدر ما تعومل معك. أنت رجل السيمياء، بامتياز.

حين نقدت كل واحدة منهما مبلغاً من المال لم تتردد أي في قبوله. حتى روز التي ترددت في المرة الأولى، أخذت المبلغ بفرح. مدت يدها بسرور، وابتسمت، وسألتك عن المحاضرة التي ألقيتها في جامعة اليرموك، وعن المؤتمر الذي عقد هناك.

وسألتهما عن معنى مفردة (سيموتيك)، فلم تعرف أية واحدة منهما. ولما أوضحت لها، لروز تحديداً، معنى المفردة، سألتك: لماذا تأخذ من الإشارات ما تريد وتترك ما لا تريد؟ وهنا أجبتها: لا آخذ من الإشارات أي شيء. إنني لا أتعامل إطلاقاً بالسيمياء، ولو كنت أتعامل بها لأسأت لي ولكم إساءات بالغة جداً. حقاً إنني أفهم دلالات الإشارات ومعاني المفردات في

السياق، المعاني البعيدة المقصودة، ولكنني لا آخذ بها إطلاقاً، وقلت لهما بصراحة: إياكما أن تصدقا ما تسمعان. وكل ما ينقل لكما هو من اختراع الآخرين. صدقا ما أقوله لكما.

لقد تحولت فائزة إلى محقق، وكنت تصغي إليها وتجيبها بصراحة ووضوح. سألتك عن سبب عدم اتصالك بهما. سألتك عن عدم الالتفات إلى شهادتها وشهادة روز. وحزنت لأن الآخرين أيضاً شوهوا عقلهما. قلت لفائزة ما جرى بالضبط. قلت لها: أخبرني ابن خالتكما أنه أحضر الشهادات معه من عمان، وسألني كيف يوصلهما، فأخبرته أن يضعهما في صندوق بريدي في الجامعة، ولم يحضرهما. هنا سألتهما عن شهادات هذا العام، وطلبت منهما من جديد، أن تحضراهما.

كانت فائزة تصدق الآخرين ولا تصدقك. وكنت تبتسم. أحياناً تنقلب الأدوار. ها أنت تصبح أباً وموضع اتهام وممن؟ من إحدى ابنتيك؟ (فيما بعد وبعد إنجاز مسودة هذه الكتابة التي أنجزت في 29/27/26 من أيلول العام 2000، فيما بعد اتصلت بروز، تحديداً في كانون الثاني من عام 2001، لتبلغها وأختها بأنك دفعت لهما مبلغ 880 دينار أردنياً في محكمة نابلس، ولتقول لهما إن المحامي استلم المبلغ أمامك، واعترف بأنه أوصل المبالغ السابقة، وأخبرتك روز أن المبالغ لم تصل وأنهما تصدقان المحامي الذي قال إنه لم يستلم المبالغ. والآن وأنت تكتب النص تحتار في عبارات روز التي تحمل معنى آخر مقصوداً غير معناها الظاهر، الآن تتساءل هل أرادت روز أن تمثل دور فائزة الذي كتبت عنه في النص؟ هل أرادت أن تقول لك إنها تعرف ما في النص الذي لم تطلع عليه أحداً؟ ربما).

وكنت تتساءل عن صراع الأجيال في الأدب الفلسطيني. تتذكر أحياناً رواية غسان كنفاني " عائد إلى حيفا " ورواية إميل حبيبي " الوقائع الغريبة في اختفاء سعيد أبي النحس المتشائل "، وتتذكر هنا الفكرة في الأدب العربي الحديث وفي الأدب الغربي. تتذكر ذلك الكتاب الذي صدر عن سلسلة " اقرأ " المصرية تحت عنوان " صراع الأجيال في الأدب المعاصر، وتتساءل: لماذا لم تشغل هذه الفكرة أدباءنا بما فيه الكفاية؟ ألأننا مشغولون بصراعنا مع الآخر المتعدد؟ صراعنا مع الإسرائيليين ومع بعض الأنظمة العربية. صراع رجالنا مع نســـــائنا، حتى سحر خليفة التي أتت على فكرة صراع الأجيال في " الصبار " و " عباد الشمس " إتياناً سريعاً، ما عاد هذا الصراع يستهويها. لقد استبدلته بصراع آخر هو صراع المرأة مع الرجل / وتصدر هذا الصراع حتى الصراع مع العدو.

بطرف خفي نظرت إلى جلسة روز الدالة، وبنظرة واضحة نظرت إلى بنطال فائزة، وقد ســـألتها: من أين اشـــتريت البنطال؟ فأجابتك: من (السيف وي) وأضافت: وثمنه عشرون ديناراً. فأجبتها مبتسماً: كنت في الضفة وفي ألمانيا – يوم كنت طالباً – أشتري لكما

من الملابس أجملها وأفضلها، ولم أكن أسأل عن الثمن، ووضعت أمامهما صورتهما معاً ترتديان الملابس نفسها، ذات اللون وذات الشكل، وكان لباساً فاخراً أرسلته لهما من ألمانيا، وكنت أشتريه من (بامبرغ) من أفخر محل، تقريباً، لبيع ملابس الأطفال، وهو محل كنت تأخذهما إليه وتتركهما تختاران ما يروق لهما. ربما ما عادتا تتذكران هذا إطلاقاً. (كانت روز في جلستها خجولة، لعلها كانت تدرك أن ما تقوم به يعبر عن سلوك أجبرت أن تمثله، وحين أقارن بين جلستها الدالة تلك وجلسة آخرين كبار، ألاحظ الفرق بين براءة روز وقناعة الآخرين. يا إلهي لو تدري روز وفائزة كم أحترمهما).

حين واصلت الأسئلة أخذت روز تسألك إنْ كنت تخاطبهما لذاتهما أم لكونهما تمثلان دورين. وأخبرتك أن الرسائل التي تكتبها وترسلها إليهما في مناسبات عديدة لم تكن موجهة إليهما، فمضمون الرسائل أكبر مما يستوعبه عقل طفل في العاشرة. ويبدو أن بعض الأسئلة التي وجهتها لم تحرجهما في حينه، قدر ما أحرجتهما في اليوم التالي، أو قدر ما عبرتا عن ضيقهما في اليوم التالي. كانت أسئلة ذلك اليوم السبب وراء لقاء الوداع. في اليوم التالي جاءتا، ومنذ اللحظة الأولى أخبرتك روز أن هذا اللقاء سيكون الأخير ووافقتها فائزة على رأيها. (ما فاتني وأنا أكتب المسودة، وها أنا أكتبه الآن، وأنا أعيد كتابة النص بخط واضح، لأنني كتبت النص الأول بسرعة، ودون تركيز، إذ تركت الذكريات تتداعى على الورق، ما فاتني هو كتابة المثل الشعبي: خطبوها تعززت. ولا أقصد هنا روز وفائزة، ولكن بعض الناس في مجتمعنا إنْ لاحظوا أن هناك من ينشد صداقتهم يشعرون وكأنهم مهمون، وأن أهميتهم تزداد إذا ما تعززوا. ولا أريد أن أستطرد في هذا لأسباب خاصة قد تسيء في أثناء قراءتها إلى آخرين أساءوا إلى أنفسهم وآثرت ألا تصدر الإساءة مني شخصياً).

في اللقاء الرابع، لما لاحظت فهم روز لأشياء معينة من عبارات كنت قلتها ولم تقصد ما فهمته روز أخذت تبسط لها نظرية التلقي حتى تقول لها: ما فهمتِه غير ما قصدت. (ما زلت أذكر عبارة دكتور ألماني يدرس العلوم الإسلامية في جامعة (بامبرغ). حين تحدثنا معاً عما يجري معي، وكان واحداً ممن يمارسون عليّ نظرية الاستثارة والاستجابة، كما لو أنني فأر، كان يقول إنه لم يقصد ما فهمته، وأنا إنما أعبر عن أمور تجري في ذهني، وما زلت أذكر العبارة الألمانية بالضبط (Etwas im kopf spiel).

في اللقاء الرابع، بعد أنْ بادرتك روز بمفاجأتها سألتهما ابتداءً، إنْ كانتا لم تناما جيداً. إنْ كانتا ذات مزاج بائس، وذهب عقلك إلى أمور تتعلق بالفتيات، أمور جسدية تنغص عليهن أحياناً مزاجهن في أيام محددة في الشهر. وحاولت أن تكون هادئاً. (طبعاً أنت كنت تربط بين هذه الفترة وفترة أخرى من حياتك، وكنت تذهب أحياناً إلى أنهما تمثلان دورين، وأبديت

إشارة إلى روز على أنها تمثل دوراً، وأحزنك ما قلته لها لدورها لا لها وفهمته على أنه خطاب موجه لها. الآن تشعر بندم شديد جداً لما صدر منك في حينه).

(لمّا جاء النادل يسألنا عن مشروبنا، طلبت علبة (سيفن أب) وسألتهما إنْ كانتا ترغبان في المشروب نفسه، لعلهما تطمئنان وتشربان، غير أنهما فضلتا أن لا تشربا العصير، خلافاً للأمس، حيث طلبت روز (الكوكتيل)، وذكرني هذا بنصي " خربشات ضمير المخاطب "، وما قلته عنه في مؤتمر الأدب الفلســطيني في جامعة بيرزيت حيث ذهبت إلى أنه نص (كوكتيل)، أما فائزة ففضلت أن تشــــــرب عصير البرتقال، وقد لفظته بالإنجليزية (Orange Juice) كأنها أرادت أن تذكرك بشخصية عربي وبشخصية الكاتب (جيمس جويس)، أما العربي فهو مواطن من نابلس تزوج من ألمانية ويجلس في بيته ساعات ولا يخالط الناس إلا قليلاً، وأما (جيمس جويس) فأشهر من أن يعرف، وكانت فائزة قد أخبرتني أنها قرأت رواية (ملفيل) " موبي ديك "، ولما سألتها ثانية عن المترجم الدكتور إحسان عباس – وكنت سألتها هاتفياً، من قبل، ولم تعرف اسم المترجم – أخبرتني أنها قرأتها بالإنجليزية مباشرة، وقلت لعلها تريد أن تقول لي إنني في أثناء كتابة رواياتي أكتب بأســلوب (جيمس جويس)، أسلوب تيار الوعي، وهو ما بدا في " الوطن عندما يخون ").

شيء ما ثقيل، ثقيل ممل ألقى بظلاله على الجلسة، غير أنك بقيت هادئاً. وآثرت، ابتداءً، ألا تواصل الكلام. وآثرت، بعد لحظات، أن تتعامل معهما سيميائياً، فربما يبث الكلام مباشرة.

وربما يكون المكان ذا آذان، فالحيطان لها آذان. وربما ... وربما. ولم تسأل روز عن الهاتف النقال. كان هاتفاً أخضر اللون، صغير الحجم، وقد أخبرتك روز أنه يخص أمها، ولم تكترث للأمر كثيراً، فقد كنت حذراً بما فيه الكفاية.

وكنت تخاطب نفسك: هل يستطيع المرء في أربع ساعات أن يتسلل إلى عقل طفلتين لم يلتق بهما منذ أحد عشر عاماً، وإن كنت تدرك أنك أسرتهما في الجلستين الأولى والثانية، وهذا ما دفعهما للمجيء ثانية بلا تردد، غير أن الأمور اتخذت مجرى مختلفاً. وتلك لعنة السيمياء. تلك لعنة الإشارات. وكنت تتذكر، دائماً، مسرحية (برتولد بريخت) " دائرة الطباشير القوقازية " ورواية كنفاني " عائد إلى حيفا "، وتذكرت المقال الذي كتبته في أيار (2000) وأرسلته إلى جريدة " الأيام " في رام الله فلم تنشره، وأرسلته إلى جريدة " الزمان " في لندن وقد نشرته، وهذا ما أخبرك به الشاعر إبراهيم نصر الله هاتفياً. وسألتهما إنْ كانتا تقرآن جريدة " الزمان " وبخاصة أن خالهما الذي يقيم في لندن له صلة ببعض الصحفيين هناك، عدا أن روز أخبرتك أنها مشتركة في شبكة الانترنت.

قالت لك روز: إنّ اهتمامنا ليس منصباً على الأدب، وأخبرتك فائزة أنها ستدرس هندسة الديكور، وأبلغتاك أنهما قرأتا الشعر في فترة ما ولم تعودا تواصلان قراءته.. وكنت تصغي إليهما وتمعن النظر فيهما، وتلحظ نغمة صوتهما التي فيها قدر من الانكسار. وخاطبت نفسك: حين ينكسر المرء لهاتين فإن انكساره ليس هزيمة، وخاطبتهما: لم أنكسر منذ عشر سنوات، وها أنا أنكسر لكما. ما الذي أستطيع أن أفعله لأجلكما؟ قولا. سليطة اللسان فائزة أخذت تضع شروطها. (لقد جعل ضعفي منها فتاة أخرى غير منكسرة، ولقد ضحكت في سرّي، وتأملت أن تكون روز على شاكلتها).

وكنت تشرب ما في الكأس، وتطلب منهما أن تشربا، وحين ترددتا أخذت تشرب من كأس ما، لعل ذلك يمنحهما الأمان، بعض الأمان. وكنت تتساءل: أية مخاوف تسربت إليهما؟ يا إلهي، حتى مخاوفي التي تملكتني في ظروف ما، بناء على تجاربي في الماضي، ما عادت في حضرتهما تنتابني؟. وكنت تدرك أن الأمر لا يتعدى بعض إزعاج. (يبدو أن الإنسان مع مرور الأيام يتحرر من تجارب قاسية حقيقية، ويأخذ ينظر إليها على أنها ليست كذلك.
وتحضرني، الآن، عبارة محمود درويش الساخرة في رثاء ماجد ابي شرار: " وغذّ السير إلى بلد فقدناه بحادث سير "، وأتساءل، كما تساءلت في مقالتي " الأدب الفلسطيني واتفاقية السلام " إنْ كان ســــيأتي يوم ما نتحرر فيه من اعتقادنا بأن فلســـــطين كانت عربية، وأن حيفا لم تكن على الخريطة، وأن (حيفو) ليست حيفا، وأن غسان كنفاني كتب روايته عن عالم وهمي خيالي ليس له حضور على أرض الواقع، ويبدو أنه لهذا نسيت أو تناسيت كل ما حدث معي، وما كنت أقوله، وما كتبته في رواياتي).

وســـألتهما: هل قرأتما رواية إلياس خوري " مملكة الغرباء "؟ (وكنت بحثت عنها في عمان لأشــــتري منها نسخة لأهديها لهما، فأنا قرأت الرواية حين صدرت كتاباً في جريدة، ثم اشتريت الرواية كتاباً، وشعرت أننا غرباء عن بعضنا، كأننا لم نعش معاً من قبل أربع سنوات).

وقلت لهما، حين اتصلت روز بأمها لتأتي وتقلهما: سلمي يا روز فقد لا نلتقي ثانية. وقلت لهما: لا لست ضعيفاً، ولكني لا أريد أن أنتصر عليكما. وحين ودعتاك مددت يدك فمدتا كفيهما، وكانت تشيران إلى أنك ذو كف ممتلئة. سارتا بخطى مسرعة، وكنت تودعهما، كما ودعتهما يوم غادرت مطار (فرانكفورت)، وكانت أمهما تنظر إليك من نافذة السيارة.

في الدقائق العشرين التي مكثتها وحيداً في (فيينا كفي) أخذت تسترجع الوجوه التي رأيتها هنا: خليجيون ومثقفون وإسبانيات ثلاث ذكرنك بالإسبانيات الثلاث اللاتي عرفتهن في (بامبرغ)، وفتاة بدت قريبة الشبه من فتاة برجوازية عرفتها في مدينتك معرفة سطحية.

نظرت إليك، ابتداءً، ثم أخذت تنظر، وهي تتناول طعامها، إلى الجهة المقابلة. كان ثمة شاب ضخم الجثة يدخن النارجيلة وينظر إليها كما لو أنه يريد افتراسها، وعرفت، من خلال حديثها مع النادل، أنها ستغادر الليلة إلى جرش لتشارك في احتفالاتها.

حين استقللت السيارة عائداً إلى فندق (الميريلاند) أخذت تصغي إلى السائق القادم من الضفة، السائق المقيم، الآن، في عمان، وكان هذا يشكو من مصيبة ابتلي بها. أخذ يتحدث عن ابنته المصابة بالسرطان، ابنته التي توشك أن تتخرج من الجامعة، وهو لا يملك النقود الكافية لمعالجتها. كان يتحدث عن الفوارق الاجتماعية وعن المهرجانات والاحتفالات وموت ابنته، وكنت تصغي وتصغي، وعلقت بعبارة واحدة، للعباد رب رؤوف بهم رحيم.

وكنت تدرك أن اتصالك بالفتاتين لن يكون مجدياً، ولكنك قلت: أفعل ما ينبغي أن أفعله وأريح ضميري. ومع أنك كنت ترغب في أن تقيم في عمان أسبوعاً أو أسبوعين، لأجلهما فقط، إلاّ أنك سرعان ما تراجعت. وحين التقيت، في اليوم التالي برشاد أبو شاور وبأحمد دحبور، في مؤسسة شومان، كان بودك أن تسهر معهما، غير أنك آثرت المغادرة.

هل كان فندق (الميريلاند) مزعجاً؟ كنت في الفندق تنظر إلى صاحبه، وهو من نابلس، وكأنه يعرفك. وكنت تتخيل أنه يحاورك نيابة عن شخصية سياسية بارزة جداً، فهو يشبه تلك الشخصية شكلاً، ولم تكن تكلمه إلا حين تريد تغيير الغرفة، لأنه الغرفة التي تقيم فيها تبدو مزعجة، وكنت تبين له مصادر الإزعاج الكثيرة: مكيف الغرفة ذو الصوت المزعج الخشن، صوت محرك يظل طيلة الليل مزعجاً لا تدري مصدره، عرفت، حين سألت، أنه صوت جلاية المطبخ. تعطيل المكيف في صيف تموز. صوت السيارات التي تسير على الشارع الرئيس، شارع العبدلي. ولم تكن، وأنت هناك، تفكر في السياسة كثيراً. كنت تقول: لقد غربت شمس العرب في فلسطين وأصبحت هذه أندلساً ثانية، وبما أننا وافقنا على ذلك، فمن الأفضل ألا أستمر في شتم الزعامة العربية. وكان عليك أيضاً أن تراعي وجود روز وفائزة هنا، وكنت تحمد الله لو لم يكن لك، في هذا العالم، أطفال قد يتحملون تبعة مشاكلك، وغبطت مظفر النواب على هذا، وعلى الرغم من ذلك كان صاحب الفندق هادئاً وديعاً رزيناً. هل كان الانتظار طويلاً؟ كنت تقول لروز وفائزة: إنني أنتظر ثلاثاً وعشرين ساعة حتى ألتقي بكما، ولو كان الفندق مريحاً لأنفقت أكثرها في القراءة، غير أن صيف عمان كان حاراً، وغرفة الفندق كانت مزعجة.

الآن تسترجع تفاصيل ذلك اللقاء. الآن تكتب، ولكنك لا تكتب كل ما نطقتم به. الآن تتساءل: أهكذا فعل بنا البعد. أهكذا ضاعت عواطف الأبوة والبنوة؟ وتتذكر ما كتبته في نصك " خربشات ضمير المخاطب ": قلب قاس، قلب حجر، تتذكر هذا على الرغم مما اعتورك بعد

اللقاء الثاني، ساعة كنت وحدك في غرفة الفندق. ذلك شيء ستحتفظ به قدر احتفاظك بأسرار أخرى لم تقلها أيضاً لأحد. هل تكابر؟ ربما! أنك لست من البشر. ربما!

***

منذ شهرين، وأنت تحاول أن تكتب شيئاً ما. تحاول أن تقرأ، من جديد، رواية إلياس خوري " مملكة الغرباء " لتكتب عنها، ولكن شعورك بالاغتراب كان مختلفاً. لم تكن غربتك غربة مواطن في وطنه – هذان الأسبوعان على الأقل –.

كانت غربتك عن ذاتك، عن طفلتيك. فهل كان أبو حيان التوحيدي، لو عاش تجربتك هذه، هل كان سيضيف جديداً إلى ما كتبه عن الغربة؟ !! ربما !!

" وقد قيل: الغريب من جفاه الحبيب، وأنا أقول:

بل الغريب من واصله الحبيب، بل الغريب من تغافل عنه الرقيب،

بل الغريب من حاباه الشريب، بل الغريب من نودي من قريب،

بل الغريب من هو في غربته غريب، بل الغريب من ليس له نسيب،

بل الغريب من ليس له في الحق نسيب. فإن كان هذا صحيحاً،

فتعال حتى نبكي على حال أحدثت هذه الهفوة، وأورثت هذه الجفوة:

لعل انحدار الدمع يُعقب راحةً

من الوجد أو يشفي نجيّ البلابل ".

منذ شهرين وأنت تحاول أن تكتب شيئاً عن الخسارات والهزائم والفقدان، خسارات الإنسان ذاته وهزيمته أمام ذاته وفقدانه ذاته. وتكرر: الأرض عيد الخاسرين وأنت منهم ".

هل كانت خسارتك خسارة العاجز؟ وتتذكر ذلك الدعاء الذي يلتفت إليه بعض زوارك في مكتبك في الجامعة: رب إن أعطيتني القدرة فلا تسلبني العفو. وتخاطب روز وفائزة: سأرضى بهزيمتي أمامكما.

المسودة: 26/27/28/29/أيلول 2000

الصياغة الثانية 30/31/كانون ثان/2001

ملحق بالقصائد التي أتى في النص على ذكرها وقد أعاد كتابتها بعد فترة وكتب أيضاً غيرها من وحي تلك الأيام، ويمكن تغيير صيغة الأفعال (اتي، أعاد، كتب) لتصبح (أتيت، أعدت، كتبت).

عادل الأسطة

2001/2/31

عمّان

في الصبح أجالس عمان الفقراء
أسمع أصوات عراقيين
اهترأت جل ملابسهم
وأشرب ما يسره الله لي
من كوكا كولا
ثم أغادر مقهاي
وأذرع شوارع عمان
وحيداً إلا من قلبي

في السادسة مساءً
أجلس في (Vienne Café)
في فندق عمرة
أنتظر حمامتيْ قلبي
وأنظر حولي فأري:
النفط العربي وبريطانيا وسعوديين
وخليجيين وسواحاً ذوي لحم أبيض

ما بين الصبح وبين المغرب
يهتز القلب لبؤس العالم،
لكنه أيضاً لجمال العالم يطرب.

تموز/2000
عادل الأسطة

مطعم هاشم

حين تسللت إلى مطعم هاشم
في طرق أعرفها
رأيت سائحة تأكل، هناك، حمصها:
وتساءلت:
هل هي كاترين ترغب فيمن يصحبها؟

حين تسللت إلى مطعم هاشم
كنت وحيداً إلا من قلبي،
ولم ينقذني إلا فقير مصري
يوزع أرغفة ويكرر، طربا،
أغنية كان المذياع يعممها:
ثمة إيقاع ولا معنى.

في مطعم هاشم ثمة ثلاثة أفراد
جاؤوا من آخر هذي الدنيا:
كاترين ووحدتها
وأنا وأحزان لا أعرف أولها
ومصري يرقص على إيقاع غربته

في مطعم هاشم كنا
غرباء ومشردين وفقراء
كنا بشراً يرقص كل على إيقاع
وحدته.

تموز/2000

اربد 2000

في فندق الجود زارني الشيطان ليلاً
قلت: أهلاً.
لم تكن زيلكة
إنما امرأة، مثل الصغير، بلغت ذروتها
ولها بكى نهرا.

في فندق الجود تذكرت قيس بن الخطيم:
أنى سريت وكنت غير سروب،
لست أندريا،
وتقرب الأحلام غير قريب.

في فندق الجود أودعت القمامة
سروالي وصغاري الموتى،

2001/2/23

إلى روز وفائزة

لو كنتما تعلمان
لو كنتما ...
أيتها الوردتان اللتان امتصتا
دم قلبي
ولم تعرفا.
اغفرا لي ما لم أستطع
نفسي، لنفسي، أن أغفرا.
أنتما في القلب
وليس لهذا القلب إلا أن يخفقا.
لكنه الضعف، إنني بشر،
ويكاد هذا الضعف، من ضعفه،
أن يجلدا.
لست جلاداً، ولا أرغب في أن أكون،
لكنه الحب
ويعقوب في حبه يوسفا
كاد أن يقتلا
أنتما يوسف الصديق،
ولست بحاجة إلى قميصكما،
لو كنتما تعلمان ...
لو كنتما ... كنتما تقولان:
(إن أبانا لفي ضلال)
وضلاله حبنا.

2001/1/24

حالات: من وحي الانتفاضة

-1-

بدايات الجنون

تمشي في شوارع نابلس، تنظر إلى المحلات التجارية، ولا ترى، منذ تسعة أشهر إلا الهدوء. حركة قليلة وبشر يمكن أن تعدهم إذا رغبت، وأنت منذ 2000/9/28 لم تغادر المدينة إلا مرة واحدة إلى أريحا فعمان. لم تزر رام الله مرة واحدة، لا لأنك لا ترغب في زيارتها، وإنما لأنك تصغي إلى جارك يحدثك عن عذابات الطريق. هو يأتي مضطراً، وأنت لست مضطراً لأن تسافر. لأنك، حين كنت تسافر، كنت تسافر رغبة في تغيير الشوارع التي تذرعها.

تمشي في شوارع نابلس، وترى الشوارع شبه فارغة، ولا تبصر البشر أفواجاً إلا حين تكون هناك جنازة شهيد. حين تكون هناك جنازة ترى الشوارع تمشي وتصغي إلى أصوات الرصاص، وتذهب نصيحة محافظ نابلس، أبو جهاد العالول، هباء. لا احد يوفر الرصاصة لزمن صعب قد يأتي. وتتساءل: من أين يحصلون على هذا الرصاص؟ ويجيبك أحدهم: إنهم يدفعون ثمن الرصاصة كذا شيكلاً، ويبدون في هذا كرماء وكرماء، جداً. للرصاص ،رصيد، وإطلاقه بلا حساب (تتذكر ما بثه التلفاز عن أحداث الخليل، تتذكر ما قاله رجل خليلي تعرض بيته لاعتداء الإسرائيليين المستوطنين: إنهم يطلقون الرصاص دون أن يصيبوا إسرائيلياً، ونحن ندفع الثمن، والله لو قتلوا واحداً أو أصابوا لما حزنا. وتقول: لعله يبالغ، ولكن قتلانا وجرحانا أكثر).

قبل أسبوع من، الآن، 2001/7/11 أو اقل قليلاً كنت تسير في شوارع نابلس، كنت تسير مع صديق قديم، وبعد أن زرتما شوارع البلدة القديمة واقتربتما من الدوار، أصغيتما إلى رجل يهذي، يشتم ويشتم ويشتم، وذكرك بمظفر النواب، وأنت منذ فترة مشغول بإيجاد تفسير لظاهرة. الشتم هذه. هل يشتم النواب العرب لأنه يكرههم، لأنه لا يحبهم أم أنه يشتمهم لأنه

يحبهم، ولأنه يحبهم، دون أن يحققوا له ما يرغب في أن يحققه العرب، وما يرغب في أن يحققه العرب هو شيء نبيل، لأنه يحبهم فإنه يشتمهم.

ذلك الرجل من نابلس، في مدخل سوق البصل، كان يشتم العرب ويقول: لقد سمّن العرب اليهود حتّى يذبحوا أهل فلسطين. ولو كان العرب انتصروا على اليهود وحرروا أهل فلسطين لما قال الرجل ما قاله. إنه يشتم لأنه رأى واقعاً أليماً عجز هو وأهل فلسطين عن مواجهته، وعجز العرب أيضاً عن مواجهته.

تقول لصديقك: هذه الحالة ليست حالة مرضية، هذه حالة صحية، ولعل الأيام القادمة تشهد المزيد من الحالات المشابهة لهذه الحالة. إن ما ألم بنا ليس سهلاً، إنه يدفع إلى الجنون.

وتمشي في شوارع نابلس، الشوارع غير مكتظة، وأهل الريف الذين تعتمد المدينة عليهم، في البيع والشراء، لا يأتون إلى المدينة إلا بصعوبة بالغة، والكل يشكو أصحاب السيارات العمومية يشكون، والتجار يشكون، وأهل الريف يعانون، والرجل يشتم ولا بُدَّ من جنون، لا بُدَّ من جنون حتّى نثبت أننا أصحاء نتأثر بما حولنا ونقنع ذاتنا بأننا لا نذهب إلى المسلخ كالخراف.

عمان 2001/7/11

-2 -

الرجال يبكون

تجلس في مكتبك في جامعة النجاح الوطنية. تنظر في أوراقك، تقرأ ما ستقوله في المحاضرة (هذا إذا استطعت أن تقرأ في ظل تلك الأجواء التي غالباً ما تخرجك عن طورك، وتجعل منك شخصاً عصابياً، وقد تحدث قادماً أو تتحدث مع زميل يجلس بقربك يحدثك عن معاناة وصوله إلى الجامعة، ويشرح لك أن المسافة بين قلقيلية ونابلس احتاجت مدة ساعتين، لأنه اضطر لأن يسير مشياً على الأقدام حتّى يتجاوز حاجزاً إسرائيلياً، وقد تصغي إلى مكبرات الصوت وهي تزعق معلنة عن تعليق الدوام لأن ثمة شهيداً ما، أو لأن هناك عمليات تفجير، أو لأن ثمة قصفاً لهذه المدينة أو تلك.

تجلس في مكتبك فيأتيك طالب كي يراجع في أمر يخصه. تصرفه بأدب لأن هناك قوانين جامعية عليك أن تراعيها حتّى تكون الجامعة جامعة، وحتى تكون أستاذاً جامعياً صارماً لا يصبح في قادم الأيام موضع تندر التلاميذ، وبخاصة البؤساء منهم. ولا تلتفت أيضاً لصديقه الذي جاء كي يتوسط، ظاناً، لأنه طالب نشيط ومجتهد، أنك ستصغي إليه، معتقداً، لأن اسمه يذكرك باسم دار نشر نشرت لك كتاباً، معتقداً أن صاحب تلك الدار يتوسط لديك، لا تلتفت إليه فتصرفه بأدب جم قائلاً له: لا تتدخل في هذا، وتضحك قائلاً: انصرف يا هذا، فيبتسم وينصرف. ولكنك تفاجأ بوالد ذلك الشاب يأتيك. يقول لك بأدب جم: أتسمح لي بأن أجلس دقائق؟ ترحب به وتسأله إن كان يرغب في أن يشرب شاياً أو قهوة فيشكرك، ويدخل في الموضوع مباشرة. يذرف دمعة ويقول: أنا والد فلان. ويخبرك أنه منذ 2000/9/28، منذ بداية انتفاضة الأقصى، لم يعمل ولم يدخل أي قرش إلى جيبه. يقول لك إنه والد ثمانية، وأن ابنه الذي رسب في المادة مرتين، هو ابنه الكبير، وأنه اضطر أن يستدين مبلغاً من المال حتّى يدفع قسط المادة التي يدرسها للمرة الثانية، ويقسم لك أن ابنه درس ودرس. تنظر إلى دمعة الأب الذي يدعو الله ألا يحرمك الفرحة، لأنه هو يريد أن يفرح بابنه. ولا تجيب. تطلب منه أن يرسل ابنه. تقرأ وابنه ورقة الإجابة وتتذكر دمعة الأب، تتذكر واقع العمال الذين غدوا منذ 2000/9/28 بلا عمل، العمال الذين تسمح إسرائيل لقسم منهم ولا تسمح للقسم الأكبر، وتتذكر منظر هؤلاء وهم يتدافعون لاستسلام مخصصات شهرية: شوال طحين وعشرة كيلو رز وعشرة كيلو سكر ومعلبات لا تدري إن كان تاريخها صالحاً أم قد انتهى واستبدل بتاريخ آخر وتعود بذاكرتك إلى أيام زمان، أيام كنت تقف في بداية كل شهر في طابور لكي تحصل على المعونة الشهرية للاجئين.

يأتي الأب هادئاً وديعاً تفصح الدمعة التي تساقطت عن أب كسره الاحتلال وقلة العمل والمال، وتحتار ماذا تفعل؟

ما الذي سيتغلب الآن: الصرامة الأكاديمية أم المشاعر الإنسانية؟ وتسأل: هل قدّ قلبك من صخر؟ وإن من الصخر ما تتفجر منه العيون؟

عمان 2001/7/11

لماذا .. يا نحنُ؟

تقرر السفر إلى عمان لكي تشارك في مؤتمر ستعقده الجامعة الأردنية في 2001/7/16. وتتساءل: متى أسافر؟ لقد حجز المشرفون على المؤتمر غرفاً للقادمين ابتداءً من 7/15. ولا تغفل عينيك عما يجري هنا في الأرض المحتلة. ماذا لو أغلق الجسر في قادم الأيام. ماذا لو حدث انفجار ما؟ وتبكر السفر خمسة أيام لتنفق أكثرها، هناك، ضجراً، لأن كيانك كله، حين تسافر وتقيم في غير منزلك، يهتز. أنت لا تستطيع أن تفعل شيئاً، لأنك ستجد نفسك أمام عالم آخر يجبرك على ممارسة طقوس أخرى. وحين تسافر مبكراً تضع يدك على قلبك. تصحو مبكراً، تصغي إلى نشرة الأخبار ليعلن المذيع أن معابر قطاع غزة قد أغلقت في وجه المسافرين وذلك بسبب انفجار سبب الهلاك للمقدم عليه في عملية انتحارية.

ولم يغلقوا معابر الضفة. في الطريق تصغي إلى السائق يقارن بين اليوم والأمس، يقول: لقد سهلها الله اليوم. أمس سرنا في طرق التفافية. اليوم سنصل إلى أريحا في العاشرة، أمس سرنا في طرق التفافية. اليوم سنصل إلى أريحا في العاشرة، أمس وصلنا إليها في الثانية ظهراً.

وتبدأ في استراحة أريحا المشكلة. ثمة شرطة فلسطينيون يبدون وكأنهم يحافظون على النظام. تجلس، مثل بقية المواطنين، على المقاعد المخصصة للمغادرين. تنتظر أن يأتي دورك، ولكنك تبصر شرطياً يصيح على مواطن كان قام من مقعده ليجلس امرأة، هكذا روى، ولكن الشرطي يطلب منه أن يعود إلى الصفوف الخلفية. هذا يعني أن عليه أن يتأخر ساعتين على أقل تقدير. تراقب ما يجري. تلوم الشاب لأنه فعل خيراً وتهمس: على المرء، في مثل هذه الظروف، ألا يفعل خيراً. عليه أن يكون قانونياً. وتسبح بحمد الشرطي لأنه حافظ على النظام.

ولكنك تفاجأ حين ينادي هذا الشرطي على عشرة مواطنين طالباً منهم أن يذهبوا إلى الباص الجديد. وتسأل هل يسافر الباص بعشرة ركاب فقط؟ وتنظر حولك لترى أربعين مواطناً يقومون بالسير على طرق التفافية غض الشرطة الفلسطينية النظر عنها، ولا تحمد الذكاء الفلسطيني هذه المرة، فالتحايل لا يكون، هنا، على الاحتلال. هنا يلتف من لهم واسطة، وما أكثرهم! ويتركون من لا واسطة له ينتظر وينتظر.

ولا تحتمل تلك التصرفات التي يقوم بها المواطنون ويغض النظر عنها من يشعرون بأنهم يطبقون النظام. وتسأل نفسك: هل ثمة فرق بين سلوك الشرطي الفلسطيني هنا وسلوك جنود الاحتلال الذين كانوا يسهلون أمر السائقين المتعاونين معهم؟ وتعود بذاكرتك إلى أيام الاحتلال الأولى، إلى بداية السبعينيات. كان للسائقين المتعاونين ميزة أثروا من ورائها.

وتدفعك حميتك، وربما ثقافتك، إلى ألا تكون حماراً. تذهب إلى الشرطي وتخاطبه بأدب جم: يا أخي عليك أن تراعي أننا بشر، وعليك أن تحول دون تسرب هؤلاء. يعدك الشرطي أنه سينتبه إلى هؤلاء الخارجين عن النظام، ولكنه لا يفعل، ولا يختلف الوضع كثيراً، بل إن الشرطة يساعدون بعض المواطنين على التسرب، لأنهم – أي الشرطة – ما زالوا يؤمنون بجماعتي وجماعتي وقريتي ومعارفي. وتعود إلى الشرطي من جديد: يا أخي هذا لا يجوز، نحن أيضاً بشر. يطلب الشرطي منك أن تعود إلى مقعدك، فهو، كما قال، يعرف واجبه. تذهب إلى المسؤول عن الشرطي، فلا تختلف إجابته: اجلس مكانك. وتنسحب بهدوء، لأنك لا تريد أن تعود إلى الضفة، ويكون سبب عودتك الشرطة الفلسطينية لا سلطات الاحتلال.

تصغي إلى أحاديث النّاس يمايزون ويقارنون، ويصبح الاحتلال لمن ليس لديهم واسطة، يصبح، في تلك اللحظة، مثالاً وماضياً يترحم البسطاء على أيامه. ويحزنك هذا، فالاحتلال ما زال يمارس فظائعه، ولا تنسى كلام السائق عن الطرق الالتفافية. يحزنك أن الذي دفع بعض المواطنين لقول هذا هم بعض الشرطة الفلسطينية. وتسأل نفسك" هل أكتب هذا؟

في فندق (الميرلاند) في عمان تجلس على كرسيك وراء طاولتك وتكتب وتدفعك قصة " عزيز نيسين " الكاتب التركي، قصته " آه منا نحن الحمير " إلى الكتابة. كان للحمير لغة مثل لغة البشر، وانقرضت هذه لأن حماراً رأى ذئباً يقترب منه، وبدلاً من أن يصرخ ويهرب أخذ يقنع نفسه بأن ما يراه ليس ذئباً حتّى اقترب هذا منه وأمسك برقبته وكان كلام الحمار الأخير النهاق آ آ آ آ، ومن يومها ما عادت الحمير تتكلم.

وأنت الآن تكتب هذا، وتخاطب الشرطي والمسؤول عنه: لماذا ... يا نحن؟ لماذا دفعنا بعض المواطنين إلى الترحم على أيام الاحتلال الذي ما زال يقتلنا؟!!

2001/8/25

4- كوشان بيت جدي

تدخل إلى البقالة لتشتري الخبز. تلقي التحية على صاحبها الذي كنت علمته في المدرسة قبل خمس وعشين سنة، فيرد عليك ويتابع مع زبائن آخرين كانوا موجودين في البقالة قبل أن تدلف إليها، وفجأة يسألك:

– قل لي يا أستاذ، كيف يمكن أن أخرج شهادة ميلاد لجدي الذي ولد في ترشيحة؟

وتسأله عن السبب، بعد أن تخبره أنك لا تعرف، فيقول: إنهم سيدفعون للاجئين تعويضات، والتعويضات مغرية وسوف تصل إلى خمسين ألف دولار.

وتتذكر سؤال والدك لك قبل شهرين أو ثلاثة عن بطاقة المؤن الخاصة بك. تسأله عن السبب يقول لك: إنهم يدفعون مائة وخمسين شيقلاً لكل لاجئ بسبب الأوضاع السائدة. تعطيه البطاقة عله يحصل على مائة وخمسين شيكلاً وشوال طحين، ثم يخبرك أنهم لم يعطوه إياها لأنك لم تسجل اسمك من قبل، أو لأنك أستاذ جامعي يحصل على راتب جيد.

وتنظر، وأنت تصغي في بيتك في أوراق ملاحظاتك. ثمة ورقة صغيرة كتبت عليها ملاحظة لتكون محور قصة قصيرة. " بيتنا في يافا وكوشان جدي: ولا تكتب القصة على الرغم من مرور عام أو عامين على الملاحظة.

ودائماً تعود بك الذاكرة إلى أيام الشباب والطفولة.

تتذكر بيوت المخيم. تتذكر جدك وجدتك اللتين أقامتا في غرفة منفصلة عن غرفة أبيك وعمك الأكبر، وأقام بالقرب منهما – أي من جدك وجدتك – عمك الصغير. ولا تعرف، الآن، السبب الذي جعلاهما يعطيانه كوشان بيتهما في يافا ليحتفظ به. ألأنه كان يقيم بينهما ومعهما قبل أن يتزوج وتصبح له عائلة. ألأنه أوصل لهما الكهرباء من بيته؟ الأنه في لحظة صفاء استطاع الحصول عليه، أم أنه أخذه خلسة واحتفظ به. وتتذكر أن والدك وعمك الأكبر كانا يطلبان من الكوشان صورة ليحتفظا بها. وكان عمك يرفض ذلك لأنه يريد البيت كله له.

ذات مرة زرت يافا مع أبيك، فمر من أمام بيت والده وقال: هذا هو بيتنا. وحين قرأت " عائد إلى حيفا " لغسان كنفاني تذكرت تلك الزيارة. لم يفعل أبوك شيئاً، مثله مثل سعيد.س. ولم يفعل عمك شيئاً أيضاً. ظل الجميع يحتفظ بالكوشان ومفتاح البيت على أمل أن يحرر عبد الناصر فلسطين، وبعد 1967 على أمل أن يحررها الفدائيون. وهدم البيت، هكذا عرفت من مواطن نابلسي كان يقيم قبل عام 1948 في يافا بالقرب من بيت جدك، ولا تدري إن ظل عمك يحتفظ بالكوشان، فلم تعد تسأله، ولم يعد النّاس يسألون عن الكوشان، فهناك بطاقة الإعاشة التي تصدرها وكالة الغوث، وهذه البطاقة قد يكون ثمنها خمسين ألف دولار. هكذا يقولون.

وتقول للبقال النابلسي: أما أنا فلا أريد أي مبلغ. سوف أترك الخمسين ألف دولار ولن أسأل عنها.

وها أنت تنفق من عمرك سبعة وأربعين عاماً. عشت في مخيم اللاجئين وتقاتلت مع السكان حول الماء، وانتقلت إلى حي بعيد عن المخيم، ولكنك تشاهد المخيم صباح مساء: مبان بعضها فوق بعض، بناء مرصوف يبدو عصبي المزاج قبيح المنظر. والناس في المخيم ما زالوا يحلمون: قطعة أرض وحديقة قد تأتي بها بطاقة الإعاشة وأما حلم العودة فشعار على لافتة أو على بطاقة تصدرها مؤسسة تحمل مفردة " سنعود " يقوم عليها بعض من يحلمون بالعودة.

عمان 2001/7/12

5- هل أنت من مواطني 1948؟

تستقل السيارة من العبدلي، في عمان، إلى فندق عمرة لتنفق ساعة أو ساعتين في (فيينا كفى). تنظر إلى العداد الذي توقف أمام الرقم (40) فتلفت نظر السائق، ويسألك هذا: هل أنت من عرب 1948؟ وقبل أن تبدأ حواراً معه تقول له: أمس، وأنا عائد من فندق عمرة، سألني سائق السيارة أيضاً السؤال ذاته. وتسأل السائق: لماذا هذا السؤال؟

يتحدث السائق الذي هو من منطقة جنين، ويقيم في عمان، عن عرب 1948. يقول لك إن هؤلاء يأتون إلى هنا وينزلون في فنادق ضخمة، أسعارها مرتفعة جداً، ويدفعون مقابل

مبيتهم الكثير ولا يسألون، ولكنهم حين يستقلون سيارة الأجرة يلتفتون أول ما يلتفتون إلى عداد السيارة، ويفصحون عن رأيهم: أنتم سائقو السيارات تستغلون عرب 1948.

تحتار حقيقة بم تجيب السائق عن سؤاله: هل أنت من مواطني 1948؟

تقول للسائق: أنا من مناطق عام 1948 أصلاً، ولكني أقمت في الضفة الغربية منذ العام 1948. أنا من نابلس الآن. وكنت ترغب في أن تقول: أنا من فلسطين، وتكتفي بهذا.

قبل فترة كانت إحدى الطالبات، من منطقة الجليل، في مكتب رئيس القسم، ولا تدري الآن، بالضبط، ما الحوار الذي جرى بينكم الثلاثة، ولكنك وأنت تصحح ورقتها، في الامتحان النهائي، تقرأ ملاحظة لافتة للنظر:

" سامحك الله يا أستاذ على الرغم من اتهامنا، نحن عرب 1948، بأننا جواسيس لليهود. أرجو أن تقرأ ص84 من كتاب حليم بركات " المجتمع العربي المعاصر ".

لا تدري بالضبط ما الكلام الذي قلته وأنت تتحدث مع الطالبة. هل قلته جاداً أم مازحاً أم بين بين؟ هل قلت هذا الكلام اصلاً؟ هل قلت كلاماً آخر؟ هل جعلتك ظروف الانتفاضة تميز بين فلسطيني في الضفة وآخر في المناطق المحتلة عام 1948 وثالث في لبنان ورابع في الأردن وخامس في سوريا؟ هل قلت لها ما كان يعتمل في ذهنك: أين هي وحدة الشعب الفلسطيني؟ لماذا لا يواصل فلسطينيو المناطق المحتلة عام 1948 تحديهم للإسرائيليين ولماذا لم يشاركوا في الانتفاضة وينتفضون كما ينتفض سكان الضفة الغربية والقطاع؟ لماذا أصبحنا، نحن الفلسطينيون، أيدي سبأ ولا رابط بينها؟

هل أنت من مواطني عام 1948؟

سؤال لافت للنظر سمعته مرتين في يومين، وأحتار في الإجابة عنه. أنا في الأصل من يافا، وأقيم منذ عام 1948، مع أهلي، في مخيم لاجئين قرب نابلس، ومنذ عام 1978، أقيم في نابلس نفسها. فهل أنا من مواطني مناطق 1948 أم أنا من نابلس؟

في نصي " خربشات ضمير المخاطب " كتبت: طلبنا دولة فأعطونا عشرة، وكان ذلك في العام 1997، ومنذ 2000/9/28 حصلنا على مائة دولة. كل مدينة غدت دولة، وكل قرية

مستقلة عن بقية المدن والقرى المحيطة، وأصبح التنقل في الضفة أمراً صعباً، وأما غزة فيبدو الوصول إليها، لقسم من أهل فلسطين، معجزة.

في عام 2000 عقدت الجامعة الإسلامية في غزة مؤتمر اللغة العربية، وقررت أن أشارك فيه، ولما أردت أن أسافر ذهبت وزملائي للحصول على تصريح. سافر زملائي ولم أسافر، وبعد أسابيع سافرت إلى الأردن فلم يمنعوني، وحين سألت: لماذا يسمحون لي أن أسافر إلى الأردن ولم يسمحوا لي بالسفر إلى غزة، كان الجواب: لأنك، حين تسافر إلى غزة، تمر بأرض دولة (إسرائيل)(؟). هل أنت من مواطني 1948؟ يسألك السائق وتسأل السؤال نفسه لذاتك: هل أنا من يافا؟

عمان 2001/7/12

6- باق في نابلس

عادل الأسطة

تصغي إلى من يزورك عارضاً عليك أن تبحث عن عمل في جامعة أخرى، فتتذكر عبارة إميل حبيبي الروائي الفلسطيني: " باق في حيفا ". وتعلق صورة إميل التي كتبت العبارة تحتها في مكتبك لترد على الذين يرغبون في أن تترك الجامعة، ثم تنزع الصورة، لا لأنك غيرت رأيك، وإنما لأنها صورة عن صورة، ولأنها بالأبيض والأسود، ولأنها كذلك فلم تكن ذات منظر جذاب.

وفي (فينيا كفي)، في فندق عمرة في عمان، تخاطب ابنتيك قائلاً: " باق في نابلس " وتشـــرح لهما قصة العبارة، بعد أن تســـــألهما إن كانتا قرأتا لإميل حبيبي شيئا. ترد عليك فائزة " باقية في عمان " ولا ترد عليها لأنها تمثل دوراً، فأنت كففت منذ زمن على أن تتحدث أمامهما كما لو أنهما، هي وأختها، تمثلان دوراً، وترد عليها على أنها تمثل ذاتها فقط: " باق في نابلس " وتقص عليهما ما كتبته خلال اليومين الماضيين، وتقول: هذا العالم مليء بالبؤس أيضاً.

ولا تسأل نفسك لماذا آثر إميل أن يكتب هذه العبارة على رخام قبره. تعود بذاكرتك إلى كتاباته ابتداءً مما ورد في المتشائل (1974) وانتهاء بافتتاحية مشارف المجلة التي

أصدرها قبل عامين تقريباً من وفاته، وماتت المجلة بعد موته بقليل. تتذكر ما قرَّ عليه بطل روايته الأولى. تتذكر مقولة سعيد عن الخازوق الذي تشبث به، تتذكر هذه المقولة التي جعلتها عنواناً لما كتبته عن إميل حبيبي في كتابك " أدب المقاومة .. من تفاؤل البدايات إلى خيبة النهايات "(1998)، وتعرف من افتتاحية مشارف أكثر:

" بل لم يَدُرْ في خلدي أن لا يجد شعبي مكاناً في وطنه بعد هذا العمر الطويل، سوى رأس خازوق .. " ولكن حتى ولو كانت هذه هي صورة الواقع الحقيقية فإننا نفضل رأس خازوق فوق تراب الوطن على رحاب الغربة كلها، فقد وجدناها كلها، حراباً وفراشها أشبه بفراش فقير هندي، رؤوس مسامير أو خوازيق صغيرة وكبيرة على قدر المقام ".

وتستعيد ذاكرتك ما تعرض له الشعب الفلسطيني منذ 1948. تتذكر العالم العربي وما هو عليه، وتفكر فيما يريده حكام دولة إسرائيل. ثمة هجرات لم تنتهِ، وثمة حروب أهلية كان لها أو ل والله يعلم إن كان لها آخر، وثمة غول اسمه الاستيطان يعقب مصادرة الأراضي، وهناك هدم البيوت عدم المرخصة، وفوق هذا تحول كل مدينة وكل قرية في الضفة إلى دولة مستقلة، وتصغي إلى حديث عن السلام، فيكون هناك سلام لفظي ولا سلام.

ترسم سيناريو لما يكون عليه الوضع في قادم الأيام: ثمة دولتان واحدة يهودية وثانية فلسطينية. قد يكون هذا وارداً. ثمة دولة ثنائية القومية سيكون مصيرها مثل مصير جنوب افريقيا. يحكم الإسرائيليون دولة تتكون من دولة ودولة، من يهود وعرب، من متعالين ومغلوبين، تنقلب فيها الأمور بسبب التكاثر السكاني العربي، بعد أن يدفع الفلسطينيون ثمناً باهظاً. وهناك إمكانية لهجرة أخرى. سوف تهاجم إسرائيل الشعب الفلسطيني، وسوف ترتكب مجازر مشابهة لمجازر دير ياسين وقبية حتى تدفعنا إلى الرحيل. وتقول: " باق في نابلس ".

يأتي طالب علمته ذات نهار. يخرج من حقيبته كراساً يحتوي على أسماء الجامعات في بعض دول الخليج وعلى الرواتب التي تدفعها للأساتذة. لا تمد يدك إلى الكراس، فيعطيه لزميل آخر.وتقول:لم أغادر يوم كان هناك احتلال كامل، فكيف أغادر حين غدا الاحتلال نصف احتلال؟

ويحدثك زميل عن استيائه لأنه أخذ يدرس في الفصل الصيفي، ويغبطك لأنك آثرت العطلة على النقود. ويعبر عن حسرته لأنه لن يتمكن، في الصيف، من السفر إلى عمان ولو لمدة عشرة أيام، فهذه كفيلة بأن تمكنه من متابعة الصحف علّه يعثر على وظيفة في دولة الخليج. فتجيبه: سافر أنت، كما سافرت من قبل، وأما أنا فباق في نابلس، ولن أسافر إلى عمان إلا لحضور مؤتمر، أعود بعد ذلك لأقرأ وأثرثر وأكتب ولا أريد نقوداً.

تنظر حولك: ما نفع النقود؟ أحياناً تتسلى بعدها أمام أبيك حتى تذكره بعاداته القديمة. أحياناً تفرزها كما كنت تفرز أوراق الشدة، حين كنت تتسلى وزملاءك الطلاب بلعب الشدة في

الأيام الأولى من العام الدراسي الجامعي، حيث لا دراسة ولا امتحانات وأحياناً تنفقها كما لو أنها لا شيء.

وتسأل نفسك: ما قيمة النقود والوطن كله يضيع، وها هي فلسطين تغدو أندلساً ثانية، أندلساً جديدة. وإلى أين سنهاجر؟ إلى عالم عربي يضيق بسكانه ويستورد مياه شربه. تتذكر ما كتبه محمد الأسعد الأديب الفلسطيني الذي أقام في الكويت، بعد خروجه منها عام 1990، تتذكر ما كتبه ونشره في مجلة " الفصول الجديدة " المصرية: " المسكوت عنه في الثقافة الفلسطينية "، وتتذكر رواية غسان كنفاني " رجال في الشمس " هذه الرواية التي تذكرتها مراراً في عام 1990، وعقبت يومها قائلاً: " لقد تأخر موت بقية فلسطينيي الكويت سبعة وعشرين عاماً أو يزيد. الذين لم يدقوا جدران الخزان ماتوا، والذين صمتوا، بعد أن نجوا، ماتوا. والذين دقوا الجدران، بعد عام 1967 وبعد عام 1982، ماتوا. لقد دق الفدائيون الجدران مراراً، وماذا كانت النتيجة؟ حكم ذاتي هزيل كنا نتهم من يقبل به في الخيانة. وها هم الذين عادوا يحاصرون مثلنا نحن الذين صحونا، ونحن أطفال، على احتلال غاشم.

" باق في نابلس " تقول لفائزة التي تقول لك" " باقية في عمان " أنت لا تريد أن تقتلع من جذورك، وإذا كان الموت هو نهايتنا فلماذا لا نموت في الوطن. كتب محمود درويش في أشعاره قبل عام 1970، عام هجرته:

" وأبي قال مرة / الذي ما له وطن / ما له في الثرى ضريح " وإذا كان لا بد من عودة فلأعد إلى يافا. وباق في نابلس.

عمان/الجمعة 2001/7/13

7- تبتعد عن الوطن ... فتجده حاضراً

تغادر نابلس لأسبوع أو أسبوعين، وحين تغدو في المناطق الأردنية تهمس: لعلك الآن تنفق هذه الفترة، بهدوء! لعلك الآن لا تصغي إلى أخبار الموتى والجرحى، لعلك، وأنت جالس في غرفة في فندق لا تسمع أصوات الرصاص ولا تشاهد الجنازات.

تجلس في غرفة في فندق. تحاول أن تقرأ شيئاً، أن تراجع مقالة ما، أن تسترخي قليلاً. تشعل المذياع وتتابع الأخبار متابعاً عاداتك في الوطن. وتصغي إلى نشرة الأخبار التي تتصدرها أخبار الوطن المحتل.

تسأل المرأة الغزية عما جرى فتقول: لقد دمروا بيتنا، وتعبر عن غضبها من جهات عديدة. تقول: يحدث هذا في رفح. وتلحظ، في النشرة نفسها، ما يحدث في الخليل. اشتباكات عنيفة ومواجهات يبدو فيها المستوطنون، لسلاحهم وحماية الجيش لهم، مغرورين لدرجة لا تتصور.

تزور في اليوم التالي جريدة الدستور. تلتقي بالصديق فخري صالح والشاعر محمد الظاهر. يرحبان بك، وتجلسون معاً. تثرثرون عن الماضي والأصدقاء. تذكر محمدا بما رواه لك، عن علاقته بالشاعر غسان زقطان. ويروي لك محمد عن مشروعه الشعري، عن هاجسه في أن تكون أشعاره ذات مذاق خاص. "هذا ما أبحث عنه، وهذا ما يهمني "يقول محمد ويتابع: "ولا يهمني إن قالوا إنني الشاعر الألف". وتعتقد أنك نسيت الوطن وما يجري فيه، لأنك وفخري ومحمد غدوتم أسرى ماض، أسرى ذكريات عشرين عاماً خلت. فجأة يدخل شاب وبيده ورقتان. يقول: فاكس من بيت الشعر في رام الله يخبر عن تعرضه للقصف، فتعقب: للمرة الثالثة. ويقرأ فخري صالح الخبر: جرح الشاعر أحمد يعقوب. وهكذا يغدو الوطن محور الحديث. وهكذا لا تنجح في أن تنساه ولو لساعات.

تمارس عادتك في غرفتك في الفندق. تكتب. تخربش. تقرأ، وحين تصاب بالملل وتشعر بالضجر تجد يدك تضغط مفتاح التلفاز. تصغي، من جديد، إلى نشرة الاخبار: القوات الإسرائيلية تقصف مدينة نابلس بمدافع الدبابات. تتذكر أحاديث الناس في نابلس: نابلس هي مكان الاشتباك القادم. وكنت تستبعد هذا، فنابلس، خلافاً لغزة ورام الله وبيت جالا والخليل، ليست على تماس مباشر مع المستوطنات، وإذا ما حدث قصف فسوف يكون عابرا. تتذكر ما حدث منذ 2001/9/28، بداية الانتفاضة. ثمة أحداث عابرة أبرزها قصف السجن الذي بناه الانجليز. وثمة ما جرى ليلاً حيث تقيم، في المساكن الشعبية الشرقية. كانت ليلة أردت أن تكتب عنها مقالة، ولكنك دونت العنوان فقط:

"ليلة شنفرية في المساكن الشعبية"

صحوت وأهلك والجيران في الساعة الثالثة تقريباً على أصوات طائرات، وفي ليلة ثانية صحوتم أيضاً على صوت ثلاث قذائف مدفعية وسرعان ما عادت الأمور إلى ما كانت عليه. وأخذ الناس يتساءلون عما جرى، فلم تجدوا، حتى الصباح، جواباً. قلت لعله الشنفري قد أغار علينا، وأخذت تقرأ:

وليلة نحس يصطلي القوس ربها

وأقطعه اللاتي بها يتنبل

دعست على غش وبطش وصحبتي

سعار وارزيز ووجر وأفكُل

ولم تكمل قوله:

وأصبح عني بالغميصاء جالساً:

فريقان مسؤول وآخر يسأل

وأدركت أنها مدافع الاحتلال، لا كلابه وذئابه. تتهاتف الجمعة 2001/7/13 مع والدك، فيخبرك عن القصف.

تبتعد عن الوطن، فتجده أمامك. تحاول أن تنسى، تحاول أن تكتب عن شيء آخر، في موضوع آخر، فلا تكتب إلا عما يجري، وتصبح، مثل أكثر أدباء فلسطين، أسير موضوع واحد هو الموضوع الوطني. تتذكر ما كتبته سلمى الخضراء الجيوسي في كتابها "موسوعة الأدب الفلسطيني المعاصر" وتتذكر (فيرينا) معلمة اللغة الألمانية. حين التقيت بها وكنت نتحدث وإياها كنت تجعل من فلسطين محور العالم، وكانت (فيرينا) تخاطبك: يا عادلُ! ألا توجد في هذه الدنيا موضوعات أخرى غير فلسطين؟ وقد أسمعك الطلاب الألمان الكلام نفسه فيما بعد. وها أنت، من غرفتك في الفندق تخاطب (فيرينا): يا فيرينا ماذا أقول لك الآن!

الجمعة 2001/7/13 مساءً

8- أنت كاتبا .... ماذا تفعل في الانتفاضة؟

يتصل بك محرر ثقافي في جريدة أسبوعية، ويثير على مسامعك العديد من الأسئلة. يطلب منك أن تكتب له عن دور المثقف في الانتفاضة. يرسل لك الأسئلة بالفاكس، بناء على طلبك، بعد أن أرسل الجزء الثاني من كلمة فاكس أولاً، فلما لم تنتبه إليه أرسل الأسئلة. (هي عادة

أخذ الكثيرون يمارسونها معك، تتحدثون عن شيء، وتتفقون على أمر ما، وبدلاً من أن يرسلوا لك ما اتفقتم عليه يرسلون فتاة، فتضحك وتتظاهر بأنك خام، وحين يرون ردة فعلك يقولون هذا على مسامعك بطريقة غير مباشرة، كأن يلفظوا الرقم خمسين، ليشيروا إلى أنك خام وصيني الهوى، وما أنت بخامٍ ولا أنت صيني الهوى وإن كنت لا تكره الصين).

تتساءل ما الذي يمكن أن يفعله المثقف في ظل الانتفاضة. كان شعراء المناطق المحتلة عام 1948 في الستينيات شباباً، وكانوا ثوريين، كانوا شيوعيين، ولم يمانعوا في أن يقرنوا كلامهم بأفعالهم، حتى كبروا وما عادوا شيوعيين، وحتى أدركوا أن الكلمة لا تجدي نفعاً. (تكتب هذا مراراً في دراساتك عن محمود درويش وسميح القاسم اللذين قالا كلاماً وسجنا من أجله، وظنا، وهما شيوعيان أنهم سيصلحان العالم، حتى اكتشاف أنهما غير قادرين على إصلاح نفسيهما). وها أنت أيضاً، على الرغم من أنك لم تتعرض لما تعرضا له، تصبح أيضاً غير قادر على حل مشاكلك الخاصة.

تتساءل: ما الذي أفعله كاتبا في الانتفاضة؟ ثمة أطفال وشباب يرجمون الحجارة. ثمة مسلحون يحملون الرشاشات والبنادق ومنهم من هو خبير في المتفجرات. وهؤلاء معدون لخدمة السلطة الوطنية. وأنت لا تجيد سوى الكلام. تذهب إلى الجامعة لتدرس الطلبة، تزور قاعات التدريس، تعد الأسئلة، تصحح أوراق الامتحانات، وتصغي إلى الأخبار. ولأنك الآن غير ما كنت عليه شاباً، حيث تميل الآن إلى العزلة، فما عدت قادراً أن تكتب هموم الجماهير في نصوصك. هكذا وجدت الدراسات مكاناً للقصص وللكتابات النثرية التي كنت تكتبها بغزارة. وتشعر بالحرج. ماذا أفعل؟ تتابع نشرات الأخبار. تحاول أن تشارك في مهرجان شعر. تكتب أشعاراً رديئة لم تنشر أياً منها حتى اللحظة، فصفحات الثقافة تراجعت في فترة الانتفاضة، عدا أن صوتك بدا للشاعر (س) وربما لـــ (ص)، صوتاً غير مرغوب فيه. (أحياناً كثيرة تتذكر رواية أحمد حرب بقايا، وتقول هذه آخرتها: خرة).

ماذا يفعل المثقف في الانتفاضة؟ إن أي طفل يستطيع أن يصوب حجراً أفضل بكثير مما يصوبه شاعر مصاب بمرض القلب أو كاتب اعتاد أن يكتب فضعف ساعد يده ورق حتى كاد يصاب بترقق العظام.

تجلس، في الانتفاضة، في غرفة مكتبك في الجامعة. تجلس في منزلك. تتابع الأخبار. تعد القتلى والجرحى. تشاهد مئات الناس في الشارع، وحين تنشر مقالاً في جريدة: قد يقرأه ألف،

ولكنك تتساءل: وما جدوى الكتابة. كم توقفت أمام قصيدة محمود درويش: وتحمل عبء الفراشة، وكم كررت السطر الشعري: ما جدوى القصيدة؟ ما جدوى القصيدة في الظهيرة والظلال، شاعر يستخرج الألفاظ والبارود من حرفين والعمال مسحوقون تحت النار والبارود في حربين.

وأحياناً تقنع نفسك بأن بقاءك على أرض الوطن هو فضيلة كبيرة. أن تظل مع الناس وأن تصغي إلى همومهم وأن تثرثر معهم. وأحياناً تضحك من كلام كبير يقوله المثقفون عن دور المثقف.

ماذا يفعل المثقف أو الكاتب في الانتفاضة؟ ماذا يفعل الكلام أمام الطائرات التي تقصف والدبابات التي تدك المنازل؟

أنقول إننا نكتب أحزاننا. أننا نكتب عن بطولات شهدائنا. أننا ذاكرة هذا الشعب أمام الزمن. ربما، ربما، وربما يكون بقاؤنا في الوطن فضيلتنا الوحيدة لا أكثر ولا أقل!!

السبت 2001/7/14

11- الجواسيس في كل مكان ...!!

أينما كنت، في هذه الأيام، تصغي إلى كثيرين يقولون: الجواسيس في كل مكان. نصف شعبنا جواسيس. ينبغي أن يفرم هؤلاء فرما. تسمع هذا في الشارع، وتسمع هذا أيضاً في الحافلة، وقد تسمع هذا في بيوت الناس الذين تزورهم، وقلما تزور أحداً.

وتسأل نفسك: هل الجواسيس حقاً في كل مكان؟ وهل حقاً نصفُ شعبنا جواسيس؟ ومن هم الجواسيس؟ وكيف يكون شعبنا كله جواسيس ونحن نرى الآلاف من الشعب يقاومون الاحتلال؟ وتتذكر ما كتبه (جان بول سارتر) حول ظاهرة التعامل مع العدو، في أثناء احتلال ألمانيا لبلاده فرنسا في الحرب العالمية الثانية. ولا ترغب في قراءة المقالة ثانية لأنك يمكن أن تنهل من هذا الواقع الذي تحيا، ولأن ما تسمعه، من الناس هنا، يبلغ أضعاف أضعاف حجم المقالة. والناس هنا لها تفسيراتها المذهلة. تقول: لربما يجدر جمع قصص الجواسيس في

كتاب مفصل ينشر ويوزع مجاناً على أهل فلسطين. لربما استفاد هؤلاء منه. وتسأل: كيف غدا هؤلاء جواسيس؟ ما الذي دفعهم إلى التعاون مع سلطات الاحتلال؟ ما الذي دفع محمد حماد إلى التعاون من أجل تفجير رأس يحيى عياش؟ ما الذي دفع شاب من طمون إلى أن يبلغ عن ابن عمه وابن قريته؟ بل وما الذي دفعه إلى أن يتمادى في سلوكه فيسلمه سيارته التي فخخها الإسرائيليون بمعرفته ليفجر رأس ابن عمه، وليموت هو خائناً تلعنه الأجيال، وكان يمكن أن يموت ميتة الأبطال لو أخبر ابن عمه بما يجري.

"الجواسيس في كل مكان" تهمس، وحين تقف، في نابلس، لتشاهد موكب جنازة الشهيد صلاح دروزه (2001/7/26) تسمع أصوات المتكلمين تطالب السلطة الوطنية بتسليم قتلة الشهيد محمود المدني حتى يتم إعدامهم.

وتسأل نفسك ثانية: ما الذي يدفع هؤلاء إلى أن يخونوا بلادهم؟ وتكرر ما ورد في قصيدة بدر شاكر السياب "المخبر":

" إني لأعجب كيف يمكن أن يخون الخائنون

أيخون إنسان بلاده؟"

وتتمنى لو تطبع من هذه القصيدة مليون نسخة توزع على كل عائلة، لكي تلصقها هذه على جدار ما في منزلها، ولكي تقرأها صباح مساء:

قوتي وقوت بنيّ لحم آدمي أو عظام

فليحقدون عليّ؛ كالحمم المستعرة، الأنام

كي لا يكونوا إخوة لي آنذاك، ولا أكون

وريث قابيل اللعين.

....

ساء المصير:

لم كنت أحقر ما يكون عليه إنسان حقير؟

والمخبر، حقاً، أحقر ما يكون عليه إنسان حقير. كقوله هذا، ويقول هذا الآخرون.

يفجر محمد حماد رأس يحيى عياش مقابل مليون دولار لم يحصل منها، كما تقول الشائعات، على شيء. لقد أدى مهمته وانتهى دوره، وتركه الإسرائيليون في شوارع تل أبيب يبحث عن محام يُحصّل له ما وعد به، تركوه خائناً يحتقرونه كما يحتقره بنو جلدته، وربما أكثر.

ويفجر ابن قرية طمون رأس ابن عمه مقابل أربعة آلاف شيكل لا تسمن ولا تغني من جوع، وسرعان ما ييسر رجال المخابرات الإسرائيلية أمر القبض عليه حتى يقتل خائناً، وحتى يتخلصوا منه لأنه سيغدو عبئاً عليهم مثل عشرات المخبرين الذين أصبحوا مشكلة داخل المجتمع الإسرائيلي.

أينما سرت تصغي إلى الآخرين يتحدثون عن الجواسيس، لا عن ذكاء الاحتلال. الجواسيس هم الذين راقبوا ابن جنين وهو يتصل من هاتف عمومي مفخخ، وحين رأوه أعطوا إشارة للإسرائيليين ليفجروا رأسه، والشيء نفسه حدث أيضاً في نابلس، في البلدة القديمة، في حارة الأريون.

"أصبح الهاتف لعنة" تخاطب ذاتك. "أصبح الهاتف شبكة تصطاد الرؤوس: رأس يحيى عياش ورأس آخرين كثر، والجواسيس في كل مكان.

"هل كنت تبالغ وأنت تكتب روايتك "تداعيات ضمير المخاطب؟" لقد أبديت فيها دهشتك، لأن الألمان، يوم كنت في ألمانيا عرفوا عن حياتك تفاصيل كثيرة، وكنت تتساءل: أهو ذكاء الألمان أم ذكاء الموساد أم هم الجواسيس؟

"الجواسيس في كل مكان" تهمس. قد يخونون لأجل تصريح عمل، وقد يخونون لأجل وظيفة، وقد يخونون لأجل تصريح لمّ شمل، وقد يخونون لأجل منحة لمدة شهر أو شهرين، منحة تافهة لا تسمن ولا تغني من جوع.

"الجواسيس في كل مكان". "نصف شعبنا جواسيس" عبارات تتردد الآن بكثرة، وتكرر مع السياب:

إني لأعجب كيف يمكن أن يخون الخائنون

أيخون إنسان بلاده؟

الجمعة 2001/7/27

12- حنين إلى القدس

لَسْتَ تدري متى زرْتَ القدس أول مرة. ربما كان ذلك في أوساط الستينات، ربما كان ذلك تمَّ يوم كنْتَ طالباً مدرسياً، وربما كان ذلك يوم اصطحبتك قريبتك معها لتعالج ابنها هناك. كان ذلك، هكذا يبدو لك الآن، منذ زمن ... منذ زمن سحيق كأنه بداية الخلق.

ولكنك، منذ بداية السبعينات، أخذت تذرع شوارع المدينة، وتسبح في بركة جمعية الشبان المسيحية، وتشاهد مباريات كرة القدم. كان ذلك يوم كنت تذهب إلى حقل الرعاة في بيت ساحور لتنفق هناك عشرة أيام، تزور خلالها القدس. وحين أنهيْتَ التوجيهي زرْت المدينة مراراً، وزرتها أكثر بعد العام 1976، ومنذ ذلك العام غدت القدسُ الكعبةَ التي تحجُّ إليها.

والقدس منذ ذلك العام أخذت تربطك بمكتب جريدة "الشعب"، وبمكتب مجلة "العودة"، وبجريدة "الاتحاد" الممنوع توزيعها في المناطق، وبدار نشر صلاح الدين، وغدت زيارة أصدقاء مثل علي الخليلي وأكرم هنية وإبراهيم قراعين ومحمد البطراوي جزءاً من زيارتك القدس، تماماً كما غدا شراء الكعك المقدسي واجباً لابدّ منه، حتى تقنع أمّك أن السفر إلى القدس لا يعني شراء الكتب وحسب.

وحين غدوْتَ محرراً أدبياً في جريدة "الشعب" أصبح الذهاب إلى القدس – أو السفر إلى القدس على رأي أهل نابلس – عادة أسبوعية، تزور في أثناء وصولك المدينة، مكتب جريدة "الشعب" وقد تُعرّج على المكتب الفلسطيني لتزور عبد الكريم سمارة، وأحياناً كثيرة تجد قدميك تجرانك إلى شوارع البلدة القديمة، وفيها تبحلق في الأرصفة والمحلات والناس الذين هم مِنْ أمَم شتى، ويوم زرْتَ المدينة، ذات سبت، أنجزت قصتك "تلك القدس.. ذلك السبت "، وفيها لم تَرَ القدس في القدس. كانت مدينةً أخرى، مدينةً غير عربية سكاناً.

وحين غادرت فلسطين لمدة أربعة أعوام، كنت تَحِنّ إلى القدس، ولم تُنْسِكَ إياها المدن الأوروبية الجميلة. كنت تحن إلى أصدقائك فيها، كنت تحن إلى شوارعها، وكنت تحن إلى كعكها وإلى كلام أبي علي يعيش على الرغم من أنه كان يبدو لك كلام صاحب جريدة يهمه

تسويق جريدته أكثر من باب نشر الوعي الثقافي التي أراد أكرم هنية تسويقها من باب نشر الوعي الثقافي ونشر الأدب الوطني والإنساني. وكلما سرت في شوارع (بامبرغ) أو في شوارع (ميونيخ) أو في الشارع الطويل في (هايدلبرغ)، تذكرت أرصفة القدس وبلاط شوارعها وازدحام الحركة فيها. بل إن وقوفك أمام مبنى الكنيسة في (فرايبورغ) ومبنى الكنيسة في (كولن)، سرعان ما كان يذكرك بكنائس القدس وبيت لحم.

والقدس هي التي علمتك أن تتسلل إليها، بعد أنْ غدا الوصول إليها محرماً على أبناء مناطق الاحتلال الثاني، ولم تكن، وأنت تمر أمام الحاجز، لِتَرْتَبِكَ إطلاقاً. إن أكثر ما سيفعله الجندي لا يتجاوز إعادتك أو حجزك لمدة ثلاثة أيام أو إجبارك على أن تدفع مائة دينار. وكنت منذ 1991 تتسلل إلى القدس لزيارتها أو لتحرير صفحة "الشعب الثقافي" من جديد، أو لحضور مؤتمر ثقافي أو للمشاركة في ندوة أدبية.

والقدس هي التي تذكرك بقصائد الشعراء المشهورين، ومن أجلها أنجزت دراستك "القدس في الشعر العربي المعاصر" والقدس أيضاً هي التي تجعلك تغني مع فيروز "الغضب الساطع آت وأنا كلي إيمان"، ولا تدري ما نوع الإيمان، أهو الإيمان الوطني أم الإيمان الديني ... أم ... أم...؟

وتسألُ نفسك الآن: كم تبعد القدس عن نابلس!!؟ وتصرخ أحياناً: يا قدسُ، يا قدسُ، يا قدسُ!!
وفي كل يوم خميس، في صباح كل خميس تفتقد القدس. تذرعُ شوارع نابلس، تجوبها في ساعة، ويبقى من اليوم زمن طويل، كأن يوم الخميس ألف سنة مما نعد في هذه الفانية.
وتهمس يوم الخميس: لو كانت الطريق إلى القدس ميسرة، لو لم تكن هناك حواجز لمرّ الوقت سريعاً. وتهمس يا قدسُ!!

وتحن إلى القدس، تحن إلى شوارعها، تحن إلى أصدقائك فيها، تحن إلى مكتب جريدة "الشعب"، إلى كلام أبي علي يعيش: لا تنشر في الصفحة مقالاً واحداً، أنشر عشر قطع حتى يشتري أصحابها الجريدة، وحتى يقرأ القراء، فالقراء يملون من الموضوعات التي تشغل صفحة بأكملها، تحن إلى شوارع القدس القديمة التي تقودك إلى مكتبة يهودية اشتريت منها كتاب (ألف مليم) لتتعلم العبرية، وتحن إلى مقهى التقيت فيه بالكاتب عفيف سالم، عفيف سالم الذي كان ترك الاتحاد ليحرر في صحيفة النهار، وليعيش حياة الصعلكة التي ذكرتك بطرفة بن العبد، وتحن إلى مكتبة المحتسب التي كنت تشتري منها الكتب، المكتبة التي كنت تدفع

لصاحبها مما كان محاسب جريدة الشعب يمنحك إياه، وتحن إلى بائع اللوحات التشكيلية الذي كان يتركك تبحلق في اللوحات دون أن يبدو بائعاً متعجلاً.

وتحن إلى تلك المدينة التي غَيَّرَتْ رأي عبد اللطيف عقل فيها، حتى قال:

"لأكاد أقسم أن جسم القدس

من نور

وليست هذه الحسناء من طين وماء"

وتحن إلى القدس!!

الأحد 2001/1/14

يحدث هذا هنا!!

شاعرية الاحتلال ونثر العالم العربي

مساء الأربعاء 2001/4/11 كان أطفال خانيونس، ممن هدمت بيوتهم، يحملون بقايا أثاث منازلهم المنسوفة لعلهم يستطيعون النوم في الخلاء، في هذا الربيع الفلسطيني الذي جاء بعد شتاء قاحل.

كانت شاشة التلفاز الإسرائيلي تبث الصور، وكان المذيع يقرأ الأخبار، فيما أردت أن أكتب، للشاعر عز الدين المناصرة الذي أرسل إليّ أسئلة يستفسر فيها عن موقفي من قصيدة النثر، رسالة أعتذر فيها عن الإجابة، لأن ما يشغله هناك، في العالم العربي، لا يشغلني كثيراً هنا، في الأرض المحتلة. وكان منظر الخراب العام الشامل يدفع إلى كتابة قصائد رثاء في المخيمات، تذكر بتلك التي كتبها الشعراء الفلسطينيون، ومنهم عز الدين المناصرة نفسه، في سقوط مخيم تل الزعتر في عام 1976، ولم تكن تلك القصائد قصائد نثر، لقد كانت قصائد ارتفعت فيها درجة الحرارة، وغلب عليها طابع الغناء، لقد كانت قصائد غنائية، فالخراب قابل لأن يتغنى به، وإن كان الغناء حزيناً.

مساء الأربعاء قال أحد سكان خانيونس: لا يوجد، لا يوجد مسلمون. وخاطب الذات الإلهية متسائلاً عن مكان وجودها، وذكرني بمقطع من قصيدة محمود درويش "مديح الظل العالي"، فيه صرخ درويش مخاطباً الذات الإلهية:

وبيروت اختبار الله. جربناك جربناك

من أعطاك هذا اللغز؟

من سمّاك؟

من أعلاك فوق جراحنا؟

وكان لابد من أن أخاطب النقاد الذين يدرسون الموقف الديني للشاعر قائلاً: "تريثوا قليلاً قبل أن تكفّروا الشاعر!! وكان لابد من أن أخاطب أخوتنا المسلمين والعرب قائلاً: لا تقولوا إن ابن مخيم خانيونس كافر، وإن هذا هو ما يستحقه الكفرة الفلسطينيون. كان لابد من أن أقول هذا.

قبل اندلاع الانتفاضة بأيام كنت في مطعم أبو العلاء، في مدينة نابلس، وأبو العلاء ما زال، حتى اللحظة، يحتفظ بمقال كتبه إسرائيلي زار مطعمه وأعجب بالوجبات التي يقدمها، وكتب، من ثم، مقالاً، بالعبرية، يمدح فيه المطعم وصاحبه، وأرسل الكاتب الإسرائيلي المقال، بعد نشره، إلى أبي العلاء، الذي ترجمه بدوره وثبت النص والترجمة في مكان ما من مطعمه. وهذه، على ما يبدو، عادة يفعلها أصحاب المطاعم، وقد لاحظتها، وأنا في عمان، في مطعم

هاشم الذي بَرْوَزَ مقالاً نشر في جريدة، عنوانه "كيف نقضي على إسرائيل بالفول؟". قبل اندلاع الانتفاضة بأيام كنت في مطعم أبي العلاء، فرأيت الصحفي عاطف سعد، من نابلس، بصحبته موظف في السفارة الألمانية في تل أبيب، وقد جاء لحضور اجتماع في مبنى النقابات. وقد قدم عاطف الرجل الألماني إليّ، بعد أن أخبره أنني درست في ألمانيا. وجرى بيننا حوار عابر، حاولت فيه أن اختبر بقايا لغتي الألمانية التي لم أتحدث بها، إلا ما ندر، منذ عشر سنوات. وحثني الألماني على استقبال وفود إسرائيل في جامعة النجاح الوطنية، كوني مدرساً فيها، ولما اعتذرت سألني إن كان السبب في ذلك يعود إلى خوفي من حركة "حماس". وكان أن أجبته: لا. وأضفت: ولن أستقبل أي وفد إسرائيلي في الضفة ما لم ينسحب الإسرائيليون انسحاباً كاملاً من الضفة الغربية وقطاع غزة، وما لم يقتلعوا المستوطنات اقتلاعاً كاملاً تاماً، أو ما لم يتخلوا عنها لصالح اللاجئين الذين هجروا من فلسطين عام 1948.

مساء الأربعاء 2001/4/11 كان رد الواقع على اتفاقيات السلام الموقعة بين العرب واليهود في دولة إسرائيل، فاليهود خارج دولة إسرائيل بشر مثل أي بشر في الكون، يمكن أن نصادقهم وأن نعشق بناتهم، ويمكن أن نسقط، حين نلتقي بهم، البندقية التي ارتفعت بين الشاعر محمود درويش وعيون ريتا الفتاة اليهودية. حقاً إن أحداث النفق في عام 1996، والانتفاضة الثانية في 2000/9/28 كانت رداً على اتفاقيات السلام، ولكن ما حدث في خانيونس يعيد الذاكرة إلى ما حدث في عام 1948، وإلى ما حدث في عام 1967، في قرى يالو وعمواس وبيت نوبا، ويعيد الذاكرة أيضاً إلى ما حدث في بيروت، في صيف 1982، وإذا كان ما حدث في حينه حدث بسبب حالة الحرب التي كانت سائدة، فما هو مبرر ما يحدث، الآن، في زمن السلام؟

منذ 2000/9/28، والناس، هنا في الضفة والقطاع، يتابعون نشرات الأخبار ويتساءلون عما يجري. يذهبون، أحياناً، إلى بيوت الشهداء، ويعزون أقاربهم، ويواصلون حياتهم، وفي أثناء ذلك يصغون إلى قصص الناجين من موت محتم، وفي المساء يبدأ صوت الرصاص يلعلع فيحول مدن الوطن المحتل إلى جبهة حرب: جبهة حرب في المدينة التي أقيم فيها، وجبهة حرب في غزة، وجبهة حرب في الخليل، وجبهة رابعة في بيت جالا. يطفي، المرء التلفاز خارجاً إلى الشارع ليصغي إلى صوت الرصاص، ويعود إلى المنزل ويشعل التلفاز من جديد ليشاهد ما يجري على الجبهات كلها. وهكذا ينتقل المرء من جنس أدبي إلى جنس أدبي آخر دون أن يشعر بفجوات أو خلل في الإيقاع. وحين أعود إلى أسئلة عز الدين المناصرة أتساءل: مَن النثر فينا ومَن الشعر؟ هل اليهود هم النثر وهل نحن هم الشعر؟ هكذا يشتبك الشعر مع النثر، ولكن أما من مجال لأن يتعايش الجنسان؟ لابد من فصل إذن، كما

يقول شمعون بيرس، ومن يرغب في دولة يهودية خالصة. ولو كنت، الآن، في عمان، لربما اشتبكت مع النقاد هناك حول ما هم فيه، وعليه، مشتبكون.

في بداية الانتفاضة كان كثير من سكان الضفة الغربية يقولون إن ما يجري ليس سوى سيناريو لما اتفق عليه في كامب ديفيد الثاني. ثمة أصوات كثيرة ارتفعت في الشارع وفي السيارة معبرة عن قناعاتها: إن ما يجري شيء لابد منه حتى يقتنع الشبان بضرورة حل ما، حل يفرض على الشعبين، وهذا الحل لا يتقبل بسهولة، ولا بد من ضحايا، ضحايا كثيرين. وحتى قبل أن يظهر السيد يوسي سريد رئيس المعارضة الإسرائيلية الحالية، في ظل حكومة السيد شارون، على شاشة التلفاز الإسرائيلي ليخاطب الرئيس ياسر عرفات، رئيس دولة فلسطين، طالباً منه أن يكف عن تمثيلياته، حتى قبل هذا كان بعض معارضي الرئيس الفلسطيني، من الفلسطينيين يقولون: إن عودة أبي عمار من كامب ديفيد عودة غير المفرط بالقضية، كما صورته وسائل الإعلام الفلسطينية، كانت مجرد تمثيل، فكل شيء طبخ في كامب ديفيد ولكن لابد من وقت حتى يتم تنفيذه. والآن، بعد أن دمرت بيوت مخيم خانيونس، الآن ربما يجدر أن نتساءل: هل هذا الذي يجري منذ 2000/9/28، حتى الآن، هو تمثيلية أيضاً.

يحمل الطفل الصغير، إبن مخيم خانيونس، مخدته ويسير. هي هجرة أخرى، فما الذي يمنعنا من أن نفكر تفكيراً كهذا؟ ومع أن الملك عبد الله عبر عن ثقته بشارون، اعتماداً على ما كان والده يقوله عن الرجل، إلا أننا نحن، أخص أهل فلسطين، لنا تجربة أخرى معه. وثمة فارق بين المقول والمعيش. ولعلنا نحن، لا الملك الراحل ولا الملك الحالي، على خطأ. إن شارون الذي أعطى الأوامر لجنوده بدخول "المناطق المحررة" ليحتلها من جديد، هو شارون الذي حرس الكتائب واعطاها الأوامر لتذبح أهل صبرا وشاتيلا، وهو الذي حول ليل بيروت، يومها إلى نهار، حتى ينجز الكتائبيون، ومعهم جنود جيش الهجوم الإسرائيلي المذبحة.

قال لي موظف السفارة الألمانية: إن الشجاعة تكمن في أن تحاوروا الإسرائيليين وأن تتحدوا "حماس"، وهذا ما حدث، غالباً في أماكن أخرى من العالم، حيث تحدى أنصار السلام أعداء السلام. وللحقيقة، فإنني شخصياً أتحدث مع الإسرائيليين، ولكنهم هم، لا "حماس" الذين يحتلون بلادي. وهم لا "حماس" الذين يطلقون النار على شعبي، ومن ضمن هؤلاء، أي من ضمن أبناء شعبي السيد محمد دحلان والسيد ياسر عبد ربه، فلماذا أعادي "حماس" إذن وأتحداها؟ والأجدر أن أتحدى المحتلين لها الذين يقع عليهم الاحتلال؟ ربما يقول لي الموظف الألماني: ولكن عليكم أن تتذكروا، أننا نحن، لا "حماس"، من يدفع لكم، ونحن نرى أن

تتصالحوا مع الإسرائيليين، فهم لا يشكلون خطراً على أوروبا، قدر الخطر الذي يشكله عليها المتعصبون المسلمون.

يخاطب ذلك الرجل من خانيونس ربه ويسأله عن مكانه. وأنا لا أشكك في إيمانه لحظة، ومن المؤكد أنه، بعد شهر أو شهرين، سيعود إلى الجامع ليصلي وليطلب، من ربه، الغفران على ما بدر منه. واليهود أيضاً يطلبون من الله الغفران، ولهذا يصرون على عدم التخلي عن القدس وحائط المبكى، حتى لو أدى ذلك إلى تشريد شعب كامل وتدمير ما بناه هذا من كده وعرقه وأجمل سنين عمره. هل ثمة مفارقة في الأمر؟ كلا الطرفين يطلب رضى الله. القتيل والقاتل. الضحية والجلاد. ولكن المفارقة تكمن في أن الجلاد ما زال يرى نفسه ضحية، ولهذا لابد من الثأر من أهل الخليل كلهم لأنهم قتلوا طفلة يهودية كان ينبغي أن يرفعها الفلسطينيون على أكف الرحمن، وأن يحتفلوا سنوياً بالاستيطان اليهودي في مدينتهم، فاليهود، بسبب احتلالهم للضفة الغربية والقطاع، مكنوا هؤلاء من شراء الثلاجة والغسالة والتلفاز، وأعطوا العامل مئات الشواكل أجرة يومية خلافاً لما يعطيه إياهم صاحب العمل العربي. اليهود هم الذين أراحوا رجال الخليل من الذهاب مساءً إلى بيت لحم لحضور أفلام السينما، ولولا اليهود لظل هؤلاء يزعجون أهالي بيت جالا أيضاً.

في سنوات النهوض الفلسطيني، قبل أن تملأ بيوت المستوطنين أراضي الضفة والقطاع، وفي أثناء الاقتتال الأردني ــ الفلسطيني أو اللبناني ــ الفلسطيني، كان الناس هنا يقولون: إن الاحتلال الإسرائيلي أرحم من الأنظمة العربية التي لم تحارب، وحين حاربت هزمت وخسرت أراضينا وأراضيها. ولعلني كنت واحداً من أهالي الضفة الذين كرروا، بعد حزيران 1967، مقولة "خمسين شالوم ولا اقلب"، ولم أفاجأ حين أصغيت إلى مواطن غزي قال من على شاشة التلفاز، بعد مؤتمر القمة الأخير (آذار 2001) ماذا فعل لنا الزعماء العرب؟ لا شيء، فلنتصالح مع اليهود. ولا أدري ماذا يقول هذا الرجل الآن، وهو يرى دبابات شارون تدمر البيوت، ولعل بيته واحد منها!! ولا أدري ماذا يقول بيرس نفسه الذي ردد ما ردده هذا الغزي حين قال بيرس: لقد منحنا الفلسطينيين حكماً ذاتياً، وفي أثناء الحكم الإسرائيلي أصبحت لهم سلطة، وأصبح لهم مناهج فلسطينية، وهذا كله لم يتحقق لهم في ظل أي نظام عربي! لم يقل بيرس ما لم يحدث، ولكنه أيضاً لم يقل ما انبغي أن يقال، وهو إن إسرائيل هي المسؤولة عن كل ما يجري، الآن، أنا أقول: "خمسون اقلب ولا شالوم"، وسبب ذلك ما فعلته بنا شالومهم وما فعله بنا شارونهم وباراكهم. لم يطردنا أي حكم عربي من فلسطين، ولم يقم أي حكم عربي بيوت شعبه على أنقاض قرانا ومدننا، ولم يقتل منا، حتى في الحروب الأهلية، مقدار ما قتله منا الإسرائيليون، وما جرى بيننا وبين الشعوب العربية ما كان ليجري لو لم نطرد من فلسطين.

كل مساء نصغي إلى نشرات الأخبار، ولحسن حظي أو لسوئه أن تلفازي لا يمكنني سوى مشاهدة ثلاث محطات. وهكذا غدا الإسرائيليون جزءاً من ثقافتي. وعليّ كل مساء أن أرى وجوههم، وأن أقرأ أسماء موتاهم وأن أصغي إلى ما يقولون، حتى غدوت ملماً بالكارثة والبطولة إلمامهم بها، وعرفت من مفردات لغتهم الكثير دون أن أواظب على تعلم العبرية في جامعة. وحين أشاهد ما حدث لهم، وما يفعلونه بنا أيضاً، أعقب. مساكين هؤلاء اليهود، والله إنهم مساكين جداً. لماذا لا نرأف بهم ونجعلهم يعيشون حياة هادئة؟ أما يكفيهم ما عانوه على يد الشعوب الأخرى؟ ولكني أقول أيضاً: إنهم يستطيعون إنجاز ذلك؟! فلماذا لا يريدون؟ إن الأمر لن يكلفهم سوى إصدار أمر من السيد شارون يطلب فيه من قواته مغادرة الضفة والقطاع. ولكن السيد شارون حريص، على ما يبدو، على الشعب الفلسطيني، ولهذا لا يريد أن يصدر أوامره، فثمة أوامر أخرى أهم، ومنها أنه هدد قبل انعقاد مؤتمر القمة بكشف رصيد عرفات في البنوك الإسرائيلية، ليبرز للحكام العرب حرصه على أموال بلادهم آملاً ألا تبدد هذه أموالها حين تمنحها للسيد عرفات.

في الحافلة يصغي المرء إلى أحاديث الركاب، وهي أحاديث جد متنوعة، منها ما يدين الاحتلال، ومنها ما يدين الرموز الفلسطينية. يتحدث الركاب عن مظاهر الفساد في السلطة، يتحدثون عن الضرائب التي يدفعونها دون أن يستطيعوا تحصيل قوتهم في هذه الظروف الصعبة، يتحدثون عن هشام مكي الذي قتل، لأنه سرق، كما يزعم المتحدثون، خمسة عشر مليون دولار. وقد يصغي الركاب إلى أصوات الرصاص. يلعلع الرصاص من أعالي جرزيم وعيبال في مدينة نابلس، وقد يصيب بعض المارة، وقد يقتل آخرين. وينسى الركاب ما كانوا بدأوا في الحديث عنه. يتحدثون عن الإسرائيليين الذين تزوجونا زواجاً كاثوليكياً لا فكاك منه. ويتذكرون جنوب لبنان. يقولون: لا حل مع هؤلاء المحتلين إلا الحل الذي ينجز بالقوة، ولا مفر من مواجهة عنيفة. أنتم شرقي النهر وهم غربيه. وها نحن ما زلنا غربي النهر. ها نحن نموت يومياً، وما حدث في خانيونس يعني، اعتماداً على هذه الرواية، أننا سنموت في قادم الأيام، أننا سوف نهجر من جديد، لنقيم شرقي النهر، وبعد أن يجتمع يهود العالم قاطبة، وهذا ما أخذ يحدث حيث جاء يهود روسيا ويهود الفلاشا، غربي النهر، وبعد أن نجتمع نحن شرقي النهر، تبدأ المجازر، وسينمو شجر الفرقد ليصرخ الحجر: ثمة يهودي، ثمة يهودي فاقتله. ولا ندري ما هي رواية الآخر، نحن أحياناً صراصير، وأحياناً حشرات ينبغي أن تباد. هم أيضاً يقولون هذا. الأب (عوفاديا) قال هذا، وقال هذا، من قبل، يميني إسرائيلي متطرف. ولا صوت يعلو لحركة السلام الآن. نام السلام. لقد نام على شواطئ تل أبيب، أو أنه خفت أمام إيقاع طبول الحرب. ولا أدري لماذا لم يكن السيد يوسي سريد أكثر جرأة ليقول: كل هذا يجري لأننا لم ننسحب كلياً من الضفة والقطاع!!

في شوارع نابلس يتحرك الناس. ولكن المدينة التجارية تبدو فارغة. لا يأتي من أبناء الريف، بسبب الحصار، إلا أقلهم. وحين أذهب إلى مطعم أبو علاء لا أرى سوى رجل وقد لا أرى سوى أبي علاء وأولاده، وهكذا يجهز لي وجبتي بسرعة، خلافاً لما قبل 2000/9/28. منذ ذلك التاريخ لا أنتظر نصف ساعة، ومنذ ذلك التاريخ تمر السيارات العمومية من أمام بيتي مروراً دائماً، فارغة إلا من راكب أو راكبين.. منذ 2000/9/28 تبدو نابلس كما لو أنها مهجورة، أحياناً قليلة تكتظ بالبشر يرفعون الشعارات، أحياناً يودعون الشهداء وينظرون إلى أعالي جيرزيم وعيبال. وها هم الآن يتساءلون: أين هي المناطق المحررة التي احتفلنا بتحريرها من قبل؟ ما زالت الجرافات الإسرائيلية على قمة جرزيم تحفر وتحفر وتحفر وتقيم جدران وقائية ضد الرصاص الفلسطيني الذي قد يصل إلى أعلى قمة الجبل وقد لا يصل. ما زالت نقاط التفتيش هناك مثل مسمار جحا. أعطانا الإسرائيليون نابلس كاملة، ولكنهم تركوا مسمار جحا فيها، ومن حقهم أن يراقبوا وأن يحفروا وأن يحادثوا الناس بعد أن يأخذوا، بواسطة المناظير، أرقام هواتف محلاتهم.

في الحافلة تصغي إلى حكايات عديدة غريبة. قتل الإسرائيليون أحد أفراد "حماس" في ضاحية البريد بعد أن راقبوه من قمة الجبل. لم يقتلوا شخصاً آخر. قتلوا من يريدون قتله. كانوا دقيقين. اليوم اتصل الإسرائيليون بصاحب محل تجمع أمام بابه العشرات من المواطنين وأخبروه قائلين: إما أن يتفرق هؤلاء وإما أن نقصف المحل.

محمود المدني الذي اغتيل في مخيم بلاطة اغتيل من قمة جرزيم. يا إلهي، تقول، كم هم دقيقون هؤلاء اليهود! إنهم لا يخطئون أحداً حتى لو كان بين مائة شخص. ويكتشف أن النار التي قتلته كانت من أشخاص قريبين منه، وأن النار التي أطلقت من جرزيم كانت للتمويه فقط. من شاشة تلفازهم تكتشف كم هم رحماء بنا. من بيريس إلى شارون، ومن نتنياهو إلى باراك. جميعهم يميزون بين السكان الذين يرغبون في أن يحبوا حياة هادئة مطمئنة وبين الإرهابيين ومرسليهم. جميعهم يقولون: لا نريد أن نعاقب السكان، ولا تدري لماذا هدموا، ما داموا لا يريدون معاقبة السكان، خمسين منزلاً في خانيونس، أكان الأطفال أيضاً إرهابيين؟! وأعيد الإصغاء إلى خطاب السيد يوسي سريد الموجه إلى السيد ياسر عرفات. يبدو الأول حريصاً على الثاني، ويريد له أن ينفق ما تبقى من عمره بهدوء، يطلب منه أن يمكث بين أفراد شعبه وألا يتركهم، فالقادة الإسرائيليون لا ينتقلون بين العواصم كما ينتقل أبو عمار. كم هو يهودي حقيقي السيد سريد الذي تحدى مجتمعه حين أصر على تدريس قصائد محمود درويش في المناهج الإسرائيلية. كم هو بنا رحيم. كم هو حريص على السيد عرفات. إنه حريص عليه أكثر من حرصي أنا عليه. حقاً إنني أشرت في نصي "خربشات ضمير المخاطب" إلى رحلات عرفات المكوكية، رحلاته التي لا تنقطع، بين غزة والقاهرة، إلا أنني

لم أقدم النصائح للسيد عرفات إطلاقاً. وعلى الرغم من أنني لم أمدحه إطلاقاً، إلا أنني أخذت أبتسم وأنا أصغي إلى كلام السيد سريد، ووجدتني، بعد أيام، ودون أن أصبح من جماعة السيد عرفات، وجدتني أقول: ليست القضية قضية عرفات. إنها قضية الاحتلال، وفي هذا يكمن الخلل، وإذا كان السيد سريد حريصاً على عرفات وعلينا فما عليه إلا أن يحارب داخل حدود مناطق 1948 من أجل انسحاب الإسرائيليين انسحاباً كاملاً. ها هو السيد سريد يجعلني فجأة أدافع عن عرفات. إنه مثل المستشرقة الألمانية (فيبكة فالتر) التي جعلتني، في ألمانيا، أدافع عن الرسول عليه السلام. كانت هذه تدرس مساق "المرأة في الإسلام" وكنت أحضر محاضرات في المساق، وحين أتت علي علاقة الرسول بالمرأة، وتحديداً علاقته بزينب زوجة ابنه بالتبني، زوجة زيد، قالت كلاماً لم أسمع به من قبل إطلاقاً. قالت: إن الرسول أعجب بجمالها فطلب من زيد أن يطلقها. وتختلف هذه الرؤية عن الرؤية التي درستها في المدرسة يوم كنت طالباً، الرؤية التي تقول إن الحياة بين زيد وزينب غدت مستحيلة، وأن زواج الرسول منها جاء ليبين للمسلمين أنه يحق للأب أن يتزوج من زوجة ابنه بالتبني، إذا طلق الأخير زوجته. ولما انتهت المحاضرة اصطحبتني السيدة فيبكة إلى غرفة مكتبها، وأخرجت كتاباً عربياً وأخذت تقرأ لي الرواية التي أوردتها في المحاضرة. الآن أقول للسيد يوسي سريد: حبذا لو ينسحب الإسرائيليون من مناطق الاحتلال الثاني، ووقتئذ سوف أصمت حين تتهم عرفات بما اتهمته به. تماماً كما صمت حين قرأت السيدة فيبكة النص العربي عن زواج الرسول عليه السلام من زينب. لم أقل، يومها، إن السيدة فيبكة فالتر مستشرقة تسيء إلى الإسلام، ولن أقول، يوم ينسحب الإسرائيليون من المناطق المحتلة بأمر يصدره السيد سريد، لن أقول إنه صهيوني مثل شارون.

أمام إحدى البنايات في مدينة نابلس، حيث هناك مكتب عملي، تبصر عشرات الرجال. تتذكر حياة اللجوء. تتذكر أيام توزيع المؤن في مخيماتنا، مخيمات اللاجئين، عشرة كيلو سكر، عشرة كيلو رز. علبة من اللحم المعلب. ويتدافع الرجال كما كنا نتدافع ونحن نستلم المؤن. تسأل عن السبب، سبب تجمع هؤلاء الرجال، فيقال لك: إنهم عمال ممن كانوا، قبل الانتفاضة، يعملون في المصانع الإسرائيلية، إيقاع قديم جديد، إيقاع يختلف عن إيقاع المساء حيث الرصاص يتساقط بغزارة على البيوت وعلى الشوارع. ذات مرة كتب الشاعر سميح القاسم مقدمة لإحدى مجموعات الحماسة التي أصدرها، عن دار الأسوار في عكا، في نهاية السبعينيات، ومما جاء في المقدمة:

"الرحلة طويلة وشاقة" في لحظات القيلولة تحت شجرة الخروب، يطيب لنا، وربما نحتاج، سماع سوناتا وديعة، أما في غور الوادي حيث الصخور والحفائر وأجياب البلان والقندول والهياكل العظمية، فيطيب لنا، وربما نحتاج، سماع المارش، المفترس.

وها أنا، وأنا أكتب، أعود لأقرأ أسئلة الشاعر عز الدين المناصرة. وأضحك في ذاتي. لم أكتب شيئاً عن الانتفاضة، سوى قصائد نثرية لم أنشرها، فكيف أجيب عن أسئلة قصيدة النثر.

سيقولون: الناس في واد وأنت في واد. وحين أزور العالم العربي ــ إن تمكنت ــ لأحاور زملائي وأتحدث عن قضية الالتزام في الأدب فسيسخرون مني ولاشك. سيقولون: ما زلت تعيش في الخمسينيات والستينيات. سيقولون: أنتم أدباء الأرض المحتلة ما زال بينكم وبين الحداثة أشواط وأشواط. وربما سيفاجئون أيضاً إذا ما قلت: إنني ما زلت أطرب لشعر القضية أكثر مما أميل إلى الكتابة عن مرحلة ما بعد الحداثة. هل أبالغ في هذا. إنهم رجال ناضجون أولئك الذين يتدافعون، كما كنا نحن الصبية نتدافع في أول كل شهر، لنستلم المعونة الشهرية.

يعقب أحد ركاب الحافلة وهو يرى الرجال يتدافعون: لقد تحول الشعب الفلسطيني كله إلى لاجئين. ننتظر معونات السوق الأوروبية، وننتظر معونات الدول العربية، وننتظر معونات الإدارة المدنية الأمريكية، ولا مزاح في هذا، وسيكون الأمر غير مبالغ فيه حين نصغي إلى شخص يقول إن صرح الشهيد في أحد المخيمات بُني من أموال الإدارة المدنية، وبالشواكل الإسرائيلية. لقد أسهم العالم كله فيما نحن عليه، والعالم كله يشفق علينا ويعطينا بعض صدقاته، حتى الإسرائيليون فعلوا ذلك.

تتصفح الجريدة فلا تقرأ إلا ما تسمع من خلال وسائل الإعلام البصرية. تراجعت الملاحق، وتراجعت صفحات الثقافة، وغدت الجريدة لا تزيد عن عشرين صفحة، بعد أن كان عدد صفحاتها يزيد عن الأربعين. وتعلق: لا جديد. ما نقرأه هو ما نعيشه هو ما نشاهده. ثمة بنادق في المظاهرات، وثمة دبابات على رؤوس الجبال. داود وجوليات بعد أن تبادلا الأدوار. ثمة إيقاع في الصباح، وثمة إيقاع في المساء.

في شوارع نابلس تصغي إلى صديقين يتحاوران. يخاطب أحدهما الآخر ــ وكان هذا قد جرح في الانتفاضة وما زال الجرح بادياً ــ يخاطبه قائلاً: كم قبضت؟ فيرد عليه الثاني: بدلاً من أن تقول سلامتك. ربما كانا يمزحان. ربما أرادا أن يعرفا ردود الآخرين. وفي الحافلة كان بعض الطلبة أيضاً يتحدثون عن مشاريع استشهاد. ربما كانوا مدفوعين بعبث الشباب المراهق، ولكنهم كانوا يتحدثون عن مشاركاتهم في قذف الحجارة. وفي كل يوم لنا شهيد وعشرات الجرحى. ليس الأمر إذن من باب المزاح. إنه مزاح ثقيل. هل يمزحون مع جنود الاحتلال؟ حجر ورصاص. شعر ونثر. قصيدة تفعيلة وقصيدة النثر. قصيدة وقصة. ومنذ تفتح وعيك على هذه الثنائية وأنت تصغي إلى الجيل السابق يقص عن النكبات التي حدثت قبل مجيئك إلى هذه الدنيا. تعيش النكبات وتصغي إلى أحاديث عنها، وتقرأ عن نكبات، اشتباك في زمن الحرب، واشتباك في زمن السلم، واشتباك في زمن اللاسلم واللاحرب. وتسأل: هل كان المعلق السياسي للتلفاز الإسرائيلي يكرر جاداً ما قلناه أحياناً مازحين؟ أوردت في نص ليل

الضفة الطويل مقولة سمعتها من امرأة قالت فيها: حين يضع عرفات يده بيد جهة ما فمعنى ذلك أن كارثة ستحدث لتلك الجهة. وقال المعلق السياسي الإسرائيلي: لقد جلب عرفات الدمار لشعبه أينما حل بينه. في الأردن وفي لبنان، والآن في قطاع غزة والضفة الغربية. ولكني أسأل: حقاً من هو المسؤول عن هذا الدمار كله؟

ربما أصابت المعارضة الفلسطينية الآن. لقد أدركت هذه أن اتفاق أوسلو لن يؤدي إلى حل عادل، وهذا ما نجنيه: المزيد من القتل والمزيد من الدمار. مرت السنوات الخمس الأولى ولم ينجز الحل. لم ينسحب الإسرائيليون، ولم تقم الدولة المستقلة، وليس ثمة حدود فلسطينية ــ أردنية وحدود فلسطينية ــ إسرائيلية، وليست المناطق المحررة محررة إلا لفظاً، مثل دولتنا اللفظية التي أعلنا عن قيامها في الجزائر في عام 1988، وكل شيء يدعو إلى اليأس. ثمة خيبة وخيبة وخيبة. كان أهالي السجناء، قبل أوسلو يزورون أبناءهم، وبعد أوسلو، ومنذ اندلاع الانتفاضة ما عادوا قادرين على زيارتهم. وكنا قبل الانتفاضة نتحرك بين مدن الضفة، والآن غدا التنقل خطراً جداً، وأينما يممت وجهك أبعدت الخراب، وفوق الخراب المادي خراب روحي فظيع.

مساء الأربعاء 2001/4/11 كان أطفال خانيونس يحملون بقايا أثاث المنازل المدمرة، لعلهم يستطيعون النوم في الخلاء، في هذا الربيع الفلسطيني الذي جاء بعد شتاء قاحل، وقبل مساء الأربعاء بيومين اثنين كانت الجرافات الإسرائيلية تهدم بيوتاً في مكان ما من الضفة بحجة أن أصحابها لم يحصلوا على ترخيص بناء من الجهات المختصة، ولا أدري إن كان الاحتلال منذ 1967 حتى الآن حصل على ترخيص لإقامة المستوطنات ــ ربما لا يحتاج الاحتلال إلى ترخيص، قد حصل عليه يوم منح الله اليهود أرض فلسطين، ويوم منح "بلفور" اليهود وعداًــ. قبل مساءين من مساء 11نيسان2001 كانت امرأة فلسطينية تعبر عن مأساتها وكان رجل فلسطيني يعبر عن مأساته. كان كلاهما: المرأة والرجل مؤمنين، ولكنهما لم يستطيعا الحصول على رخصة بناء منحها الله لليهود فقط. هل استعير من محمود درويش عنوان كتابه لأختتم هذه التداعيات: "وداعاً أيها السلم، وداعاً أيتها الحرب!" ولكن ما الذي يجري منذ مائة عام على هذه الأرض؟؟.

لا تصدق فراشاتنا

تداعيات حول ما يجري

تشدّ، يوم الاثنين (2001/5/13) الرحال إلى عمان لتشارك في مؤتمر تعقده الجامعة الأردنية، وتصغى في الطريق، وأنت في السيارة، إلى نشرة الأخبار. كان الخبر الفاجع هو ذاك الخبر الذي قرأه المذيع يعلن فيه عن استشهاد خمسة من رجال الأمن الفلسطيني. تراودك نفسك، لحظتئذ، أن تعود من حيث أتيت، أن تعود إلى نابلس. غير أن السائق يواصل طريقه، نحو الجسر، غير مكترث للشارع وما ألم به من خراب، وغير مكترث أيضاً للحواجز الإسرائيلية التي كلما تراها وتبصر الجنود الإسرائيليين، تراودك فكرة أنك، ومن معك، ستكونون معاً ضحايا اللحظة القادمة. وتقول: من يدري إن كان بين هؤلاء الجنود جندي يحقد على العرب لأن بعض هؤلاء مسوا به جنسياً، وهذا ما قيل في أثناء محاكمة جندي إسرائيلي قتل في أثناء الانتفاضة الأم، في عيون قارة، إن لم تخن الذاكرة الخؤونة، عشرة فلسطينيين من عمال المناطق المحتلة كانوا متوجهين، ذات صباح باكر، إلى أماكن عملهم في فلسطين. ولا تبتعد الفكرة عن مخيلتك وأنت عائد إلى الضفة الغربية من عمان، بعد يوم من العملية الانتحارية في (ناتانيا)، فكلما أبصرت جندياً إسرائيلياً وأصبعه على الزناد، أخذت تقرأ الفاتحة على روحك وأرواح من معك.

تعرف، وأنت في عمان، في فندق (توليدو)، تعرف من أحد زملائك أن طائرة إسرائيلية قصفت مدينة نابلس، إثر عملية (ناتانيا)، وألح عليك السؤال: هل ستعود إلى نابلس، أم أن الجسر سيغلق لتبقى في عمان؟ ويقترح زميلك الذي تزوج من إحدى قريباته من مناطق 1948، يقترح عليك، إن أغلق الجسر، أن تعودا معاً عبر مطار اللد. وتسأله: ولكن من يضمن أننا سنعود وسنصل أيضاً إلى نابلس سالمين!

يسألك، وأنت هناك في عمان، يسألك إخوتك العرب عمّا يجري في الأرض المحتلة. يسألونك خارج قاعات الدرس عن مستقبل النزاع العربي الإسرائيلي. يسألونك إن كنتم هناك تمارسون حياتكم الطبيعية. يسألونك عن هذا وأنتم تتناولون طعام الغداء أو طعام العشاء، أو كنتم تزورون هذه الجامعة أو تلك. وتصغي في المحاضرات إلى ما يقال، وتناقش المحاضرين، وتشاهد بنايات عمان الغربية الجميلة الأخاذة الساحرة، وشوارعها وجسورها، وتتمشى ليلاً، مع إخوة جزائريين، في جبل الحسين، وتنسى في تلك اللحظات عالم الضفة والقطاع. كأنما تسلبك المحلات وأضواؤها وحركة الناس، كأنما تسلبك عقلك، وتدرك هذا فأنت من يكرر: حين يغادر

أهلُ الضفةِ الضفةَ ويقطعون الجسر، لا يعودون يسألون كثيراً عن تلك البلاد المحتلة. فكيف يسأل عنها العرب؟

تقفل يوم السبت (2001/5/19) عائداً من عمان إلى الضفة. وكنت تتابع أخبار قصف نابلس وعملية (ناتانيا). تسأل السائق قبل أن تصعد إلى الحافلة، تسأله إن كان الجسر غير مغلق. حين تعبر الجسر تبصر ثلاثة جنود إسرائيليين يتابعون واجباتهم. (أنزلونا من الباص، ونظروا في جوازات سفرنا، وفحصوا الأمتعة بواسطة فاحصة ألكترونية، ثم تركونا نصعد إلى الباص لنواصل طريقنا، طريق العودة). ولم تفكر، وأنت تبصر الجنود، في أي شيء آخر مختلف عن تفكيرك الذي راودك وأنت مسافر، تفكيرك الذي يراودك وأنت تمر أمام حاجز إسرائيلي: ماذا لو أن أحد هؤلاء أراد أن ينتقم من العرب لاعتداء بعض هؤلاء عليه جنسياً. ماذا لو كان بين هؤلاء طبيب مثل (غولدشتاين)؟ وحين تبصر مجندتين إسرائيليتين شابتين: سمراء البشرة وحنطية اللون تتذكر ابنتيك وتلعن، كما لعن أبو علي الشخصية الرئيسة في قصة توفيق فياض " الحارس "، تلعن الحرب وكل الحروب. فهاتان الشابتان، كما روز وفائزة، قد تكونان ضحية. وتستعيد، وأنت تنظر إليهما، صورة ابنتيك، وتنسى كل ما تستمع إليه من هذا الطرف عن ذاك أو من ذاك عن الطرف الآخر. لكن تفكيرك، وأنت تمر أمام حاجز إسرائيلي، سرعان ما يعاودك: هل سنكون ضحايا اللحظة القادمة؟

تنهي التفتيش وتصل إلى استراحة أريحا، وسرعان ما يسألك السائق إن كنت متجهاً إلى نابلس. يقول لك سائق الباص: سينطلق الباص في الحادية عشرة، خلافاً للتاكسي الذي سينطلق في الثانية عشرة، فيما يرد عليه سائق التاكسي قائلاً: إنني أحتاج إلى ثلاثة ركاب فقط، وهكذا سرت وراءه، صوب (تاكسي) يه، فيما تهمس : " على الرغم من كل ما يحدث فإن الشعب الفلسطيني ما زال يتمتع بروح الدعابة، وما زال قادراً على المزاح ". غير أنك سرعان ما تلتفت جانباً لترى رجلاً نزقاً حاد الملامح، رجلاً يغير، بسرعة، فكرتك عن الشعب الفلسطيني، رجلاً يقول لك سلوكُه إن الفلسطينيين بشر عصابيون، وربما يعود هذا، بل إن هذا يعود، إلى الأحداث التي مروا، وما زالوا يمرون، بها. (كان هذا الرجل قد سأل السائق إن كان يسير نحو نابلس عبر قرية حوارة، ولما أجابه السائق أنه سيمر عبر طريق الباذان تردد في الصعود، فما كان من الركاب إلا أن شغلوا مقاعدهم وازدادوا واحداً، وهنا جن جنون الرجل الذي أصر على أن يكون أحد ركاب الحافلة، وقد أخر هذا، بسبب صراخه وإصراره على الصعود، الركاب وانطلاق

الحافلة خمس دقائق، فلا الركاب تنازلوا عن مقاعدهم، ولا هو وافق على أن يأخذ حقيبته التي وضعها، للتو، في خزانة السيارة).

تجلس إلى يمينك، في المقعد الخلفي، امرأة قروية ربما تجاوزت السبعين، وتقول هذه إنها جدة شهيد من شهداء قصف سجن نابلس يوم 2001/5/18. شهيد من الشهداء الذين دمر جزء من مبنى السجن على رؤوسهم. ولم تتكلم هذه المرأة إطلاقاً. ربما كانت، وهي تتمتم، ربما كانت تقرأ القرآن على روح حفيدها. لم تصرخ. لم تبك. لم تفه بأي حرف. كانت تتمتم فقط، وكان ركاب السيارة صامتين يصغون إلى صوت المذيع، وحين أخذ هذا يقرأ أسماء شهداء سجن نابلس أصغت امرأة وزوجها، وكانا من قرية عصيرة الشمالية، إلى اسم ابنهما. كان بكرهما، وهو في الشرطة الفلسطينية، وفجأة انفجرت المرأة بالصراخ: " يما يا حبيبي. يما يا حبيبي " وكان زوجها صامتاً. تتوقف السيارة للحظات. يتناول السائق من خزانة السيارة زجاجة ماء يناولها لامرأة أخرى كانت تجلس إلى جانب أم الشهيد، لتغسل هذه وجه الأم ولتسقيها الماء (ارتمت الأم على صدر زوجها وغابت، للحظات، عن الوعي، فيما واصل السائق طريقه والتزم الركاب الصمت) وقبل أن تقترب السيارة من الباذان تسأل والد الشهيد إن كان عرف خبر استشهاد ابنه للتو، فيخبرك أنه عرف ذلك أمس.

لا تدري لماذا وأنت في الطريق لم تعقب على كلام مذيع كان يتحاور مع شاب فلسطيني حول الفضائيات وبرامج التلفاز المحلية. (كان الشاب يطلب من المذيع أن يدعو أجهزة السلطة أن تراقب محطات البث التلفازي المحلية، ذاهباً إلى أنه من غير المعقول أن تبث هذه المحطات أغاني خليعة من حيث الصور المرافقة للكلمات في الوقت الذي تشيع فيه جثامين ما لا يقل عن أحد عشر شهيداً، وكأن المشرفين على محطات البث هذه ليسوا فلسطينيين، كأنهم ينتمون إلى عالم آخر غير عالمنا) ولا تدري أيضاً لماذا لم يعقب أحد من ركاب السيارة على كلام المتحاورين في الإذاعة، (وبخاصة حين أتى المحاور على ذكر الزعماء متهماً إياهم بالخيانة وعدم المسؤولية، فيما ردّ عليه المذيع وقد طلب منه ألا يذكر أسماء معينة وأن يكتفي بالتعميم) وتسأل ذاتك: أهي لحظة ذهول أمام ما جرى مع المرأة؟

(الصحيح أنني وأنا أراقب المرأة أخذت أفكر في كتابة مقالة عما جرى معها وما انتابها، وتمنيت لو كانت معي، للتو، ورقة أدون فيها الخطوط الرئيسة لمقالة أو لكتابة نثرية تصف ما نحن فيه، هذا إذا استطعت أن أكتب، في حالة كهذه، في لحظة كانت أيضاً فيها السيارة تهتز بقدر ما كانت مشاعرنا تهتز: ثمة أم شهيد، وثمة جدة شهيد).

تسترجع، وأنت تصغي إلى المرأة، تسترجع المقاطع الشعرية التي يغنيها مارسيل خليفة المغني اللبناني المعروف، تسترجع الأسطر:

أجمل الأمهات التي انتظرت ابنها

وعاد مستشهداً

فبكيت دمعتين ووردا

ولم تنزوِ في ثياب الحداد

وتقول: لم تبك الأم حسب، لقد صرخت وفقدت الوعي. ولا تدري الآن، وأنت تكتب هذا إنْ كانت منزوية في ثياب الحداد. لا تدري إن كانت توزع الحلوى لاستشهاد ابنها، إذ زفته عريساً للأرض بعد أن لم تزفه عريساً لامرأة. (وأنا في الفندق، كنت أتابع ما يجري من خلال ما تبثه محطة الجزيرة القطرية. كان الدكتور عبد العزيز الرنتيسي، أحد قادة حركة حماس في غزة، يتحدث عن ردود أفعال الناس في الضفة والقطاع إزاء العملية الانتحارية في (ناتانيا)، ومما قاله: إن الناس توزع، في القطاع، الحلوى، وهو يقول ذلك لأن سكان فلسطين يريدون الحرية، وأفصح أن الناس لا تخاف الموت، خلافاً لليهود الذين هم أحرص الناس على حياة).

وتقول لك دموع الأم، يقول لك صراخها إنها لم تكن ترغب إطلاقاً في أن يموت ابنها. تقول لك إنها تريد أن تفرح به عريساً لامرأة، لا عريساً للأرض التي ستبتلع الجميع: شيوخاً وشباناً، نساءً وفتيات، أطفالاً وأجنة ولدت حديثاً، وتتذكر لحظتها قصيدة محمود درويش التي منها الأسطر التالية، الأسطر التي جعلت إحدى عباراتها عنواناً لهذه التداعيات:

" نخاف عليك ومنك نخاف، اتضحنا معا، لا تصدق إذن صبر زوجاتنا

سينسجن ثوبين، ثم يبعن عظام الحليب ليبتعن كأس الحليب لأطفالنا.

نخاف على الحلم مِنْهُ ومنّا. ونحلم يا حلمنا. لا تصدق كثيراً فراشاتنا ".

وتسأل نفسك: من أصدق مِنْ هؤلاء؟ الدكتور الرنتيسي أم الأم التي تبكي ابنها الشهيد أم الشاعر محمود درويش؟ وتذهب بعيداً !! كلما حوصرنا نتذكر إخوتنا العرب. الجماهير هنا تشتم، والقيادة تحاور وتناور، ونحن لا حول لنا ولا قوة إلا بالله.

حين تقترب السيارة من وادي الباذان، الوادي الذي يمتاز بوفرة المياه صيفاً وشتاءً، تلقي نظرة على الشلالات التي كانت شلالات، ولا تبصر الشلال الرئيس. تقول: لكأن الينابيع لم تنفجر

شتاءً هذا العام (2001/2000)، لكأنها لم تتفجر لأنها وجدت بديلاً: أجساد الشباب التي تفجر دمها. تقول: لكأنه إن لم يكن هناك مطر، تمطر أسلحة العدو رصاصاً، وإذا لم يكن هناك ماء فليكن هناك دم، ولتكن أجساد الشباب والأطفال بديلاً عن الأرض. ليكن دم هؤلاء ماء الأرض الذي انحبس هذا العام.

قبل أن تصل الحافلة إلى نابلس، وحين وصلت إلى المساكن الشعبية الشرقية حيث تقيم، تطلب من سائقها أن يتوقف على الشارع الرئيس. ولا ترجوه أن يوصلك إلى بيتك، لأن هذا قد يؤخر الركاب دقيقتين والد الشهيد بحاجة إليهما. تسلم على والد الشهيد وتقول له: يسلم رأسك، وليلهمك الله الصبر. وتسير باتجاه منزلك تنفق يوماً كاملاً قبل أن تذهب إلى وسط المدينة لتشاهد آثار قصف طائرة الــ إف 16 سجن نابلس المركزي. وتتساءل حين تبصر آثار العدوان: لماذا هدموا السجن الذي أصبح جزءاً من المدينة. (على ما أعتقد فإن المبنى أنشيء زمن الانتداب، الانتداب البريطاني الذي بنى المدارس وشق الطرق وأنشأ السجون وأصدر وعد بلفور. وقد ظل المبنى سجناً في العهد الأردني وفي العهد الإسرائيلي وفي عهد السلطة الوطنية، وكنت أتمنى شخصياً لو حولته الأخيرة إلى متحف سياحي، كما حوّل اليهود معسكر (داخاو) وغيره، في ألمانيا، إلى مكان يؤمه السياح القادمون ليروا بقايا عهد (هتلر) وما فعله هذا باليهود، وكنت واحداً مما زاروا، في عام 1990 (داخاو) وشاهدت أسّرة اليهود الخشبية وغرفة الغاز وأبراج المراقبة).

تقرر منذ فترة وجيزة أن تكتب مقالة تقارن فيها بين العذاب اليهودي في أوروبا والعذاب الفلسطيني منذ إنشاء أول مستوطنة على أرض فلسطين، ولا تدري لماذا لم تنجز، حتى اللحظة، المقالة. ألأنك قرأت ثمة مقارنة حول ذلك في رواية سميح القاسم " الصورة الأخيرة في الألبوم "؟ لا تدري غير أنك لم تنجز المقالة !! (كنت، على الرغم من انتفاضة الأقصى هذه وما ينجم عنها من قتل وتدمير، كنت أتابع، في شهر نيسان 2001، ما يبثه التلفاز الإسرائيلي عن (الهولوكست) وشاهدت حلقة عن مؤسسة (ياد فاشيم) تحدث فيها غير يهودي عن الماضي. تحدثوا عن عشرات المآسي: عن الطفل الذي قتل وبقيت فردة حذائه تذكر أهله بمأساته، وعن الدمية وقصة صاحبتها، وعن الرسائل التي كتبت ولم تصل. وقلت: لقد تعذب اليهود اثني عشر عاماً، ما بين 1933 و 1945، وانتهى عذابهم على أرض ألمانيا، ولكنه ما زال يعيش معهم، في ذاكرتهم وفي (ياد فاشيم)، وأما نحن فلم ينتهِ عذابنا الذي بدأ منذ 1878، ومال زال مستمراً، وتساءلت: أي الشعبين دفع ثمناً باهظاً أكثر؟ قلت أيضاً: لئن قال الإسرائيليون إنهم فقدوا ستة ملايين يهودي وأننا

لم نفقد سوى عشرات الآلاف، لئن قالوا هذا فإن نظرية (آينشتاين) – وهو يهودي – ربما تقول لهم إننا دفعنا ثمناً باهظاً، ثمناً أكبر من الثمن الذي دفعوه، فالمرء منا يموت يومياً على مدار خمسين عاماً أو ستين عاماً، وإذا ما أخذنا بهذا فإن عدد قتلانا يساوي عدد قتلاهم في معسكرات الإبادة، وإذا ما رصدنا العذاب البشري للاجئين الفلسطينيين وغير اللاجئين، على مدار 100عام من رحلة العذاب، يبدو الفارق بين معاناتنا ومعاناتهم ؟).

وتسأل: هل أراد الإسرائيليون، حين هدموا سجن نابلس على مَنْ فيه، أن يقتلوا أفراد حماس فقط؟ أم أنهم أرادوا أن يخلصونا من ماضيهم هنا؟ من ذكرياتنا عن رحلة تحت الحكم الإسرائيلي بعد عام 1967. وتقول: ثمة حكايات كثيرة حدثت في هذا السجن الذي عاش فيه السجانون الإسرائيليون مع السجناء الفلسطينيين. ثمة حكايات ربما تساوي كماً عدد حكايات اليهود في (داخاو) أو في (أوشفيتس). تسأل نفسك من جديد: هل فكر الإسرائيليون في أننا قد نجعل منه مؤسسة مثل مؤسسة (يادفاشيم)؟ ربما.

وأنت تلقي نظرة على السجن المهدم تتساءل: ما الذي تفعله الأم الآن؟ ما الذي تفعله الجدة الآن؟ هل تتزوي كل واحدة منهما في ثياب الحداد أم أنهما تأخذان بنصيحة الشاعر:

" ولم تتزوِ في ثياب الحداد "

وما الذي يفعله الشهيد؟ هل دخل إلى جنات الخلد أم أنه ما زال ينتظر دخولها؟ وهل زف هناك إلى الحور العين أم أنه حنّ إلى وطنه آخذاً بما قاله أحمد شوقي:

وطني لو شغلت بالخلد عنه

نازعتني إليه بالخلد نفسي

وهل صاح هناك: يا وطني! كما صاح الشاعر ناظم حكمت حين قال:

" أدخلوا الشاعر إلى الجنة فصاح يا وطني! "

وتتذكر ابيات مريد البرغوثي التي وردت في قصيدته " طال الشتات " تتذكرها وتكررها مراراً:

طال الشتات وعافت خطونا المدن وأنــت تمعــن بعــدا أيها الوطن

كــأن حــبك ركض نحو تهلكـــة ونحن نــركض لا نبطي ولا نَهِنُ

يقول مــن لــم يجــرب مــا نكابده كأن أجملهم بالموت قــــد فتنوا

ولو حكى الموت بالفصحى لصاح بنا كفى ازدحاماً على كفيّ واتــزنوا

يهوي الشــــهيد وفي عينيه حيرتنا هل مات بالنار أو أودى به الشجن

لــك اتجهنــا ومــوج الحلم يجمعنا فبعثرتنا على أمواجها الســـــفن

ارجع فديتك إنْ قبرا وإنْ ســــــكنا   فدونك الأرض لا قبر ولا ســكن

وتقول: والذين ماتوا بالقصف ما أرادوا أن يموتوا، وإلاّ لما دخلوا شرطيين في سلك الشرطة في السلطة التي وقعت اتفاق سلام مع إسرائيل. وكانت دموع الأم تقول لك: لا أريد أن يموت ابني وتسأل نفسك: من تصدق هل تصدق؟ أمهاتنا أم تصدق جنرالات دولة إسرائيل الذين يقولون إننا نرسل أبناءنا إلى الموت؟ أم تصدق الدكتور الرنتيسي أم تصدق محمود درويش؟ وتبحث عن السلام الذي أنجزوه عبر شاشات التلفاز ولا تدري إن كان مقطع سميح القاسم الذي حذفه من أعماله الكاملة ما زال يعبر عما نحن فيه:

ليغن غير السلام

ليغن غيري للمودة والوئام

وعلى ربى وطني

وفي وديانه قتل السلام

لا تدري فالسلام، لم يجلب، حتى اللحظة، السلام !!

د. عادل الأسطة

الكتابة الثانية الجمعة 2001/8/24

ربيع 2002 الفلسطيني

" من أدب الانتفاضة "

بقلم: عادل الأسطة

تدون في بداية نيسان 2002 بعض الملاحظات لتكتب نص الاجتياح نثراً. تحاول أن تكتب، فتكتب شيئاً، تكتب صفحة ثم تغض النظر عنها وعن الملاحظات، وتترك الأوراق جانباً. تخاطب نفسك: ما الذي سأضيفه، إلى ما كتب؟ ولو لم تكن قارئاً للنصوص الأدبية الفلسطينية، شعرها ونثرها، لربما ما أثرت السؤال، ولربما أنجزت الكتابة.

ها أنت، وأهل نابلس، وأهل الضفة تعيشون حصاراً يشبه الحصار الذي عاشه أهل فلسطين في المنافي العربية، منذ هزيمة حزيران. ها هي المدن الفلسطينية ومخيماتها تعيش حصار الشتات الذي قرأت عنه في أدبيات كثيرين، عرب وغير عرب، ولست، ربما، بحاجة لأن تعدد أسماء الأدباء وأن تذكر عناوين النصوص. تذكر على سبيل المثال كتابات (جان جينيه) الأديب الفرنسي، وأحمد العراقي، ولعله اسم مستعار لكاتب أنجز كتاباً عن سقوط تل الزعتر العام 1976، ومحمود درويش. هل أنت بحاجة إلى أن تكتب عن أول شهيد سقط دفاعاً عن المدينة، دون أن يكون ممثلاً رأي فصيل؟ هل ستضيف جديداً إلى ما ورد في " ذاكرة للنسيان " عن نقص المياه وصوت الرصاص؟ وهل أنت بحاجة إلى أن تدون كيف كانت رنة صوت صحافي نقل ما شاهده داخل البلدة القديمة في نابلس، رنة صوته وهو يتحدث عمّا شاهده من قتل وتشنيع. لقد كتب (جان جينيه) عمّا شاهده في صبرا وشاتيلا.

تقرأ الملاحظات التي دونتها مراراً. تحاول أن تكتب شيئاً، وما تحاول أن تكتبه ورد في نصوص الآخرين وكتبهم. ها هي المأساة تتكرر. تختلف الشخوص. تختلف الأمكنة، تختلف أسماء القتلة، ولكنها، في النهاية، لكنها، حين نجرد الأشياء من ملامحها الخاصة، تبدو واحدة: قاتل وقتيل، محاصِر ومحاصَر، عربي وفلسطيني، يهودي وفلسطيني، مستوطن ولاجئ، مغتصب ومغتصبة أرضه. ويوم لم تكن في المخيمات المحاصرة، في المنافي، كنت تتابع أخبار الحصار، وها أنت اليوم، في ربيع 2002 الفلسطيني، تعيش الحصار.

تمر العشرون يوماً الأولى من آذار كأنها ليست من أيام الشتاء، وكأن آذار ما عاد آذار، ما عاد أبا الزلازل والأمطار، كأنما أمعن في شيخوخته وما عاد قادراً على بذر بذاره في رحم الأرض. ترتفع درجة حرارة الجو ولا يسقط المطر إطلاقاً. وتلمح بعض المواطنين وقد صيفوا مبكراً. تخلصوا من ملابسهم الشتوية، وارتدوا القميص نصف الكم وودعوا الشتاء مبكراً مرحبين بالصيف.

وفجأة تتغير الأحوال الجوية.

يعود الشتاء من جديد، وتهطل الأمطار في الأيام العشرة الأخيرة، ويستقر هطولها حتى أوائل نيسان. ومع أيام نيسان الأولى تمطر دولة إسرائيل أرض نابلس بالدبابات، تمطر مدن الضفة أيضاً مدينة مدينة ويبدأ الربيع الفلسطيني، ويصحو الناس كما صحا أهل براغ في العشرين من آب العام 1968 على الدبابات الروسية تملأ شوارع المدينة، وتتذكر في ربيع 2002 ربيع 1968، تتذكر وأنت في فلسطين ربيع براغ التي زرتها بعد اثنين وعشرين عاماً من غزوها لتشاهد الناس يوقدون الشموع لمن مات في العام 1968، بعد أن لم تعد براغ عاصمة دولة شيوعية.

في الأسبوع الذي سبق اقتحام المدينة كنت أسير في شوارع المدينة التي كانت تعج بالناس وتضج بالحركة. أخذت أشتري مواد تموينية وأقول: من يدري فقد تقتحم نابلس عما قريب، وعما قريب قد تدخل الدبابات. وحين أعلنت رأيي أمام اللحام أجاب: لا أظن ذلك، ولكن الدبابات دخلت إلى المدينة.

تصحو في الليل على صوت الدبابات، تدب الدبابات دبيباً كأنها تدب على القلب، ويطلق الجنود الرصاص، ويرافق هذا صوت طائرات الأباتشي، وتعيش لمدة ثلاثة أيام وأنت تسمع صوت الرصاص. كانت الدنيا تمطر رصاصاً. تمطر رصاصاً فقط ولا شيء غير الرصاص. إنه موسيقى تلك الأيام الطويلة، وتصبح مثل أهل المدينة كلهم سجين منزلك. ومع مرور الأيام تسوء حالة السجناء. تغرق المدينة في الظلام، لانقطاع التيار الكهربائي، بسبب قذيفة طائشة أو غير طائشة، ويعاني أهل الحي الذي تقيم فيه من نقص في المياه، لعطب أصاب ماسورة المياه التي تزود الحي بالمياه.

تتذكر، في الحصار، وأنت تستخدم المياه، تتذكر كتاب البخلاء للجاحظ، وتحديداً قصة أهل البصرة من المسجديين، وبخاصة جزؤها الأول الذي يدور حول صاحب بئر. لم تكن، من قبل، توفر المياه لارتفاع فاتورة المياه، ولم تكن تتذكر قصة صاحب البئر. ها أنت تغدو مثل صاحب البئر، وها أنت تترحم على الجاحظ وتقول له: أردت أن تسخر من بخلاء عصرك، فأنقذت آخرين عاشوا بعيداً عن دجلة والفرات، وها هو بخيلك ينقذ الآخرين من مأساة نقص المياه. وتخاطب نفسك: أفعل ما كان يفعله صاحب البئر. أستحمْ بالمياه ولا تتركها تذهب إلى المسيل فوراً. اترك الطست تحتك واستخدم المياه ثانية، " وما علمنا أن كتاباً حرمه، ولا سنة نهت عنه، فربحنا هذا منذ أيام ".

وتتذكر، وأنت في الحصار، حياة الطلبة الألمان. كان هؤلاء يسرفون في استهلاك المياه حين يستحمون، ولكنهم حين ينظفون الأواني بعد الطعام يبدون حريصين جداً على توفير المياه يضعون الأواني في حوض من حوضي المجلى، وبعد أن ينظفوها بالصابون

ينقلونها إلى الحوض الثاني، الذي يكون ممتلئاً بالماء ثم يخرجونها وينشفونها بالمنشفة، وهكذا لا يبذرون الماء، كما يفعل الناس في فلسطين والأردن وغيرهما. وكنت تسخر من الطلبة الألمان لتناقض سلوكهم في استهلاك المياه، وكنت تتمنى لو أن أهل بلدك، حين ينظفون الأواني، لو أنهم يحذون حذو الألمان، كأن مدن أهل فلسطين هي التي تقام على ضفاف الأنهار، لا مدن ألمانيا. كأن المياه في فلسطين أكثر منها وفرة في ألمانيا. وسيغدو نقص المياه عاملاً مزعجاً في الحصار، ولكنك تحمد الله أن الناس هنا لم يعانوا ما عاناه أهل مخيم تل الزعتر في العام 1976، وأهل بيروت في العام 1982. تحاول أن تقرأ قصة ليانة بدر " أرض من حجر وزعتر " تحاول أن تقرأ روايتها " عين المرآة " لتتعلم من تجارب اللاجئين في لبنان، تحاول أن تقرأ نص محمود درويش " ذاكرة للنسيان " لتقرأ ما كتبه عن نقص المياه في أثناء حصار بيروت العام 1982، ولكن هل من رغبة في تلك الأيام للقراءة. سوف تكف عن هذه العادة وتستبدلها بعادة الإصغاء إلى الإذاعات، والإصغاء إلى المذياع الوسيلة الوحيدة للاتصال بالعالم. لقد انقطع التيار الكهربائي وما عاد التلفاز سوى صندوق لا جدوى منه، وانقطع الهاتف وما عاد سوى تحفة من تحف المنزل، تحفة ناعمة تشغل حيزاً ليس أكثر، وقد لا يروق منظرها المشاهدين، ومن خلال المذياع تصغي إلى أصوات عديدة: صوت مذيع راديو (مونت كارلو) وصوت مذيع مذياع لندن، وصوت مذيع إذاعة القدس، ولأيام تصغي إلى مظفر النواب يكتب عن جنين ونابلس، وفيما بعد تصغي إلى أصوات محمود درويش وسميح القاسم وآخرين.

من على شرفة منزلك تشاهد، وفي الأيام الأولى، امرأة طاعنة في السن وابنها يجلسان على حجر تحت شجرة توت قرب منزل لا يعود لهما. تنظر إليهما. يجلسان تارة ويقفان طوراً. يتحركان في حيز ضيق، وينظران من زاوية الشارع إلى مكان يبعد حوالي كيلو متر أو يزيد قليلاً. امرأة ترتدي ملابس ريفية، وشاب يبدو نحيلاً ولم تكن تشاهدهما من قبل. تهبط درج منزلك وتلتقي ببعض أقاربك وتسأل عن هذين الشخصين، عن قصتهما، وتكون قصتهما قصة الابن والأخ، قصة أول شهيد دفاعاً عن نابلس، وسيظل هذا الشهيد، لأيام، محور حديث الناس.

" أستحم ليلة الغزو، صباحاً، حمل بندقيته التي اشتراها، وهو أب لعدة أطفال، وقيل إنه اشتراها من مال استدانه، وخرج ليقاتل ببندقيته أرتال الدبابات. قيل: قال لأهله سأكون أول المدافعين عن نابلس. وخرج ".

" لم يكن مكان استشهاده بعيداً عن موقع الأمن الوطني، على مدخل المدينة، ذهب ليقف إلى جانب هؤلاء، لعله يصد قوات الغزاة. لم يطلق طلقته الأولى. كان رصاص العدو

أسرع وأكثر غزارة، وهكذا اخترق الرصاص جسده، وظل في مكانه لأيام، دون أن يستطيع أحد الاقتراب من جثته ".

سيغدو هذا الشهيد موضع أنظار الناس ومحور حديثهم. يحاول الأطفال الاقتراب من جثته، فيطلق جنود الاحتلال النار بغزارة، وسرعان ما يفر العصافير الصغار، وتظل أمه تنتظر، ليومين أو أكثر، من المكان نفسه، يظل أخوه يجلس وينظر من بعيد إلى جثة أخيه، دون أن يستطيع الاقتراب منها. ولا يسمح للصليب الأحمر، ولا للهلال الأحمر، ولا لسيارات الإسعاف الاقتراب من المكان. كانت نابلس قد أعلنت منطقة عسكرية مغلقة، وليس أمام الناس إلا الجلوس في منازلهم وانتظار الموت، انتظار قذائف الدبابات تهدم هذا المنزل أو ذاك، وتدمر جنازيرها هذا الرصيف أو ذاك.

" هل جثة الشهيد ظلت على ما هي عليه؟ هل نهشتها الكلاب؟ يقال إن الكلاب كانت تقترب منها ولكنها لا تمسها، ويقال إن الجثة تعفنت؟ هل من يترك أطفاله جوعى ويحارب عدوه يعد شهيداً؟ " تساؤلات كثيرة كانت تثار عن أول شهيد ظل لأيام عديدة مكان استشهاده، حتى حملت جثته ودفن مع بقية الشهداء، الذين وصل عددهم، خلال الاجتياح، خلال نيسان فقط، إلى خمسة وسبعين يزيدون قليلاً، ترك الشهيد أطفاله الفقراء أصلاً بلا معيل، تركهم بلا أب، وترك أمه تواصل مهمتها الأبدية: تربية الأطفال؟ أطفالها وأطفال أطفالها حين يكبرون.

وأنت تجلس في منزلك. تصغي في الليل إلى أصوات الرصاص والقذائف وطائرات الأباتشي، وتصغي في النهار إلى إذاعة صوت القدس من دمشق، وأنت تجلس في منزلك ينعى أقاربك، عمك الذي هاجر العام 1948 من يافا. وكان عمك مريضاً وجاء الاجتياح ليزداد وضعه سوءاً وليضطر أهله إلى نقله إلى المستشفى، فما الذي سيفعلونه لو مات في الحصار؟ هل سيظل لأيام عديدة في المنزل دون أن يتمكن أحد من دفنه؟ هل ستتعفن جثته لأيام قد تسبب الألم لزوجته؟

وأنت تجلس في منزلك تحزن لموت عمك كما تحزن لموت كثيرين، لاستشهاد كثيرين. تحزن لموته لا لأنه مات. تحزن لموته لأنه عمك الثالث الذي يموت في أوضاع لا تتمكن فيها من تشييعه والسير في جنازته، إنه قصة من قصص واقع اللاجئين الذين طردوا العام 1948 من مدنهم وقراهم، ومات أكثر هؤلاء في المنافي. مات عمك الأول في عمان، دون أن يشارك إخوته في جنازته، ودون أن يعرفوا إلا بعد أيام، عرفوا أنه مات ودفن، عمك الذي فقد العام 1948 ابنه وزوجته ولم يشاهدهما حتى الأبد، واقترب من الجنون، ومات عمك الثاني، في الشام بعيداً عن إخوته الذين عرفوا، بعد شهر أو شهرين، نبأ موته. وهكذا أيضاً لم يشارك إخوته في تشييع جنازته، وها هو عمك الثالث يموت في الاجتياح ويدفن دون أن يسير

إخوته في جنازته. وتسأل نفسك: هل هي لعنة المنفى؟ يدفن عمك مع الشهداء الذين سقطوا دفاعاً عن المدينة، ويتكرر السؤال: هل يعد شهيداً؟

وأنت تجلس في منزلك تصغي إلى نبأ موت عمك ولا تستطيع أن تفعل شيئاً، لا أنت تستطيع ولا أبوك ولا أحد يستطيع، وتنتظرون جميعاً أن تقوم جهة رسمية بدفنه، وهكذا يدفن مع الآخرين في قبر جماعي تقريباً.

***

وسيثار السؤال حول موت عمك، هل عمك أيضاً شهيد؟ هل يعتبر ضحية من ضحايا الاجتياح؟ هل يعد هذا اللاجئ الفلسطيني الذي ظل يحلم بيافا ويتحدث عنها شهيداً؟ هذا الذي أنفق من عمره أربعة وخمسين عاماً في مخيم كلما مرت الأيام ازداد بؤساً وتعاسة وشقاءً. كان المخيم في بداياته مثل عمك في شبابه، وها قد غدا عمك كهلاً ومات، فمتى يتخلص اللاجئون من المخيمات التي تموت، الآن، مثل عمك في أيامه الأخيرة: اختلال الجسد، واختلال الذاكرة، وتحول المرء ليكون عبئاً على غيره، ضيفاً على هذه الأرض يريد الجميع التخلص منه.

وتتأمل في نفسية الفلسطينيين تجتاح المدينة ويموت عشرات البشر، وتهدم منازل عديدة، ومع ذلك يبقى هناك هامش للضحك أو للسخرية أو لإظهار ما يختبئ في الأعماق من تفكير يعبر عن حاجة هؤلاء إلى مساعدات دائمة، هل عمك شهيد أم أنه ليس شهيداً؟ لقد مات في الاجتياح، مات بعيداً عن يافا المدينة التي ولد فيها، أفلا يحق أن يسجل اسمه مع الشهداء؟ ألا يحق للعائلة أن تحصل على منح صدام أو السعودية؟ إننا جميعاً شهداء، إننا جميعاً جرحى، إننا نعاني، وربما ارتاح الذين استشهدوا. ربما حلوا مشاكل أهلهم المادية! كلام كثير يقال، وسخرية مرة تعبر عن واقع أسود أليم، وليس الفلسطينيون وحدهم من يبحث عن منفعة مادية في لحظات الدمار. ليسوا وحدهم من يسخر من ذاته التي تسعى، أحياناً، هذا المسعى، في حرب الخليج الأولى شاع أن أطفال العراق يغنون:

بيي راح ع الجبهة
بكرة يرجع تابوته
وأمي تشوفللها رجال
وأنا أخذ تويوتاً.

وسيكثر كلام معارف عمك وابنه، هل سجلت اسم أبيك مع الشهداء؟ ستحصل على خمسة عشر ألف دولار. والدك شهيد مثل بقية الشهداء وهكذا. هكذا على الرغم من أن الرجل لم تدفن جثته إلا بعد أيام. هكذا سيموت عمك الثالث دون أن تشارك في جنازته، تماماً كما

مات عمك الأول وعمك الثاني ولم تعرف أنت وأهلك إلا بعد أيام أو أشهر، ودون أن يشارك أي منكم في الجنازة، أية جنازة من الجنازات الثلاث.

***

وها هو العكوب يصبح حديث كل لسان في المنطقة التي تقيم فيها، لا تدري إن كان الكتاب العرب في منطقة بلاد الشام أتوا في نصوصهم على العكوب. والكاتب الوحيد الذي ما زالت ذاكرتك تذكر أنه ذكر العكوب في كتاباته هو سلمان ناطور. لقد أفرد هذا عنواناً فرعياً هو " فرحة العكوب " في كتابه " هل قتلتم أحداً هناك "(1999)، وكان زار باريس في صيف 1990 وهناك بدأ يفاخر بعض معارفه ممن يقيمون في المدينة بأن باريس التي يفخرون بها ليست أفضل كثيراً من قريته، ودليله على ذلك أن قريته تعرف الزعتر والعكوب، وهذا ما لا يوجد في باريس، وتكون المفاجأة أن صديقه يدعوه، في باريس إلى وجبة عكوب.

والعكوب نبات بري يكثر في الجليل الفلسطيني والجولان السوري والجنوب اللبناني أيضاً، ويطهوه أهل نابلس كل عام في موسمه وفي غير موسمه، يحضر التجار، في الربيع، كميات كبيرة منه، وتعمل النسوة على تخليصه من القشور والأشواك، ويحتفظن به في مُبرَد الثلاجة ليطبخ أيضاً في الصيف، وإذا كانت ثمة نسوة مرفهات ولا يقدمن على تنظيفه، فقد عرفت نابلس نسوة متخصصات، بخاصة في البلدة القديمة، يعملن على تنظيفه حتى يكسبن بعض النقود، وغدا العكوب يباع بقشره وأشواكه، ويباع أيضاً منظفاً جاهزاً للطبخ. وكما أرسل أخو الفنان الفلسطيني المقيم في باريس سمير سلامة العكوب إلى أخيه، كما ورد في كتاب سلمان ناطور، فإن نسوة نابلس يرسلنه – أي العكوب – إلى بناتهن المقيمات في المنافي، وقد يصل إلى أبعد من باريس، قد يصل إلى أمريكا وشيكاغو فيها. وأنت، أنت تعرف منافع العكوب جيداً، وتعرفه أيضاً امرأة شاركتك الحياة فترة من الوقت، وهي التي أفشت سره معك، حتى غدا بعض معارفك يذكرونه أمامك كي يشيروا إلى شيء ما، إلى فعل ما، إلى وضع ما يخص حياتك.

ولأول مرة، منذ أعوام، تفعل ما يفعله الناس هنا في نابلس، تشتري ما لا يقل عن عشرة كيلو غرامات من العكوب وتخزنها في مبرد الثلاجة، علك تطبخها حين تعود إلى المنزل ولا تجد شيئاً تطبخه، أو حين لا تتناول طعامك في السوق، وحين ينقطع التيار الكهربائي، لمدة عشرة أيام، يغدو العكوب على كل لسان. ولا تكتمل فرحتك، لا تفرح كما فرح سلمان ناطور حين أكل العكوب في باريس وتضحك لما آل إليه مصير العكوب، مصير آلاف الشواكل التي أنفقت هذا الربيع لشرائه. ويمر يوم أو يومان وأنت تفطر العكوب مع البيض، تطبخ العكوب ظهراً وتتعشى مما تبقى منه، ويعلق كثيرون وهم يتابعون أخبار مخيم

جنين المحاصر والبلدة القديمة التي تدمر، يعلقون ساخرين: يا خسارة العكوب. ويذهب بعض الحضور إلى ما هو أكثر من التعليق الساخر. إنهم يشمتون بالنسوة اللاتي أنفقن وقتاً طويلاً وهن ينظفن العكوب مما يعلق به، ويشعر رجال آخرون بالندم لأنهم أطاعوا نساءهم وأحضروا هذه الكمية الكبيرة، ويلقي آخرون اللوم على آخرين أغروهم بشراء العكوب حتى يبيعوه لأن الآخرين أرادوا أن يبيعوا.

ها هو العكوب يذهب سدى، وها هو الحديث عنه يوازي الحديث عما يجري في البلدة القديمة المحاصرة وعما يجري في مخيم جنين الذي شغل وكالات الأنباء في العالم كله. كان العالم مشغولاً بما يجري من دمار، وكان بعض الناس منا مشغولاً بهذا وبالعكوب أيضاً. ربما يزعم بعض من يقرأ هذا أننا تافهون، غير أن الحديث عن العكوب كان حديثاً مرده أيضاً فقدان مخزون الطعام الذي كان يبقينا على قيد الحياة، إذ ستمر أيام يصبح الطعام فيها شحيحاً مثل الماء.

***

تجلس في منزلك، على الشرفة، ويغدو الجلوس على الشرفة خطيراً. تصغي إلى الأخبار فتسمع أن امرأة في رام الله قتلت برصاص إسرائيلي وهي جالسة على شرفة منزلها. ولكنك، في هذا الربيع الذي أخذت الأمطار تتساقط فيه متأخرة، تمل من الجلوس على الشرفة، ومن الشرفة تبصر طائرات الأباتشي، ومن الشرفة ترى الناس جالسين أمام عبتات بيوتهم، ومنها أيضاً تصغي إلى كلمة عابرة من هذا أو ذاك فتعرف آخر الأخبار. ويأتي صوت الرجل وامرأته يقتتلان. يسأل جارُ الرجل الرجلَ عن طحين فيعطيه الرجل بعض ما لديه، وتعرف المرأة التي لديها عدد من الأطفال، فتستشيط غضباً: وماذا إذا امتد الحصار؟ من أين سأطعم أبناءك؟ ويتعاركان هو يريد أن يساعد الآخرين وأن يتعاطف معهم وأن يشاركهم لقمة العيش، وهي تفكر في قوت أبنائها إن امتد الحصار. وستسوء أخلاق بعض الرجال، ستتولد مشاكل منزلية بين الأزواج والأقارب، سيزداد احتكاك هؤلاء ببعضهم، وقد يفرغون حقدهم، إزاء ما يجري، نحو أقاربهم، على بعضهم. وتدرك أن الاحتلال ليس احتلال الأرض، إنه احتلال الروح. وتسخر من أقوال الإسرائيليين: نحن لا نزعج إلا من يزعجنا، ينسون ما يسببونه من دمار روحي مخيف، ينسون أن هناك مئات الآلاف ممن يعانون، لا لسبب، إلا بسبب الاحتلال. تصغي إلى صوت الرجل وصوت امرأته، تصغي إليهما يتعاركان: هو يريد أن يقدم مساعدة في هذه الظروف الصعبة، وهي تريد أن تطعم أبناءها إن امتد الحصار ونفد المخزون الذي بدأ ينفد والأيام تطول، والحصار يشتد ويطول أيضاً.

تصغي إلى محمد الصغير اليافع يبدي رأيه فيما يجري. يجلس محمد إلى جانبك كما لم يجلس من قبل، يتعرف إليك من خلال ما تقص وتغدو هذه إيجابية من إيجابيات الاجتياح المدمر. يتقارب الناس من بعضهم، يتعارفون ويتآلفون وينفقون مع بعضهم وقتاً طويلاً. قد يلعبون الطرنيب أو البناكل أو الهند ريمي. قد يلعبون الطاولة. قد يجلسون ساعات طويلة، ولكن هذا سيثير مشاكل جديدة أولها تحول الناس إلى بخلاء بسبب حرصهم على الماء. تشكو المرأة من تقديم الشاي والقهوة كما لم تشكُ من قبل. صحيح أن سبع كاسات شاي أو سبعة فناجين قهوة لا تحتاج إلى كثير ماء. ولكن تنظيف هذه الأواني يستهلك ماء كثيراً غير متوفر أصلاً لما هو أهم، مثل تنظيف الحمام الذي غدت رائحته كريهة جداً لقلة المياه، المرأة التي كانت من قبل، تقدم الشاي والقهوة بلا حساب، غدت تحسب، حين تقدمها، ألف حساب، وربما تشاجرت مع ابنها، وربما تشاجر زوجها معها.

تصغي إلى محمد يقول: لقد حارب أبناء مخيم جنين تسعة أيام، في حين هزمت ثلاث دول عربية في ستة أيام. ومحمد لم يكن في حرب العام 1967 مولوداً، إنه من مواليد الانتفاضة الأم، ومع ذلك فإنه يقارن، ويقارن غيره أيضاً ما يجري بما جرى، ويصبح كل حصار يحيق بالفلسطينيين موضوعاً لإظهار تميزهم عن غيرهم من العرب، بل وللقول لليهود: نحن من يرد الصاع صاعين، ونحن من يعيد الكرامة المفقودة للجندي العربي. ها نحن نقاتل، لقد قاتلنا في الكرامة، وقاتلنا في الجنوب اللبناني، وقاتلنا في بيروت 1982، وها هي أسطورة الجيش الذي لا يقهر تجد من يقهرها.

يفتخر محمد بقتال أبناء جنين ويسخر من العرب الذين ما زال أهل فلسطين يتأملون بأن العرب، ذات يوم، سوف ينقذونهم، وليس افتخار محمد مقتصراً عليه. كانت إذاعة القدس تبث قصيدة مظفر النواب الجديدة التي نظمها لمخيم جنين، وكان مظفر يقول:

هذا الفتى البهي من جنين
حذاؤه اشرف منهم جملة ومفرداً
هيهات أن يلين

وكان الناس الذين يتحدثون عن العالم العربي منقسمين على أنفسهم. منهم من شتم الأنظمة العربية لأنها لم تعط الأوامر لقواتها للتحرك. ومنهم من مدح الأنظمة العربية والشعوب العربية أيضاً لما يقدمونه من مساعدات لولاها لحصلت، في الأراضي المحتلة، كارثة، سينقسم الناس على أنفسهم إزاء العالم العربي، سيقدحون ويمدحون، وسينقسمون أيضاً وهم يشاهدون مقر رئاسة عرفات يقصف، سيقولون كلاماً كثيراً.

في السابعة مساءً تدخل إلى شقتك، تغلق باب منزلك وتتمدد في الظلمة، تستمع إلى أزير الرصاص الذي قد يستمر حتى الفجر. وتصغي، باستمرار، إلى نشرات الأخبار،

فالمذياع الذي يشغل على بطارات هو الوسيلة الوحيدة للاتصال بالعالم. وعليك أن تنام وتصحو، وعليك أن تخفض صوت المذياع أيضاً، كأنك تخاف من شخص يتلصص عليك، يحصي عليك حركاتك، يريد أن يحدد المكان الذي تكون فيه ولا تجد تفسيراً لهذا السبب، فلو أراد الجند الوصول إليك لاعتقلوك من منزلك الذي ما زال خاضعاً، لمناطق الاحتلال، فأنت تقيم في نابلس المحتلة لا نابلس المحررة قبل أن تحتل من جديد. ذات مساء تهز ثلاث قذائف المكان، ويتساءل الناس عن مكان انطلاقها، والمكان الذي وجهت إليه. هل قذفها أهل المستوطنة القريبة، مستوطنة (آلون موريه)؟ وتكون المفاجأة في القذيفة الرابعة، يخرج شاب من منزله إلى الحديقة ليتفقد السيارة أو ليبصر ما يجري فتصطاده القذيفة لتفصل رأسه عن جثته، شاب في بدايات العشرينات لم يفعل شيئاً، لم يصوب بندقيته نحو جندي، لم يقذف حجراً، فقط دفعه فضوله لأن يعرف ما الذي فعلته القذائف الثلاث، ويحفر للشاب في الحديقة، قبر ويدفن في منزله.

***

في الحصار تغدو زاهداً، لا لأنك مؤمن جيد، وإنما لأنك لا تجد ما تأكله، ستكتفي بوجبة واحدة، وستكف عن القراءة، ترغب في أن تقرأ كتباً معينة هي " كنديد " لفولتير، و " المتشائل " لإميل حبيبي و " الطريق الوحيد " لعزيز نيسين، ترغب في أن تعيد قراءتها ثانية، ولكن لا رغبة في القراءة، ثمة عادة واحدة تمكنت منك هي عادة الإصغاء، وتعود نفسك على أكل المجدرة.

وستجعل منها نشيداً خاصاً بك، تتذكر نشيد " والله زمان يا سلاحي " وتحور فيه ليغدو " والله زمان يا مجدرة " وتكرر يومياً، صعوداً وهبوطاً، صباحاً وظهراً وربما مساءً النشيد " والله زمان يا مجدرة ".

" تسأل أمك إن كان لديها عدس، وتهيئ الرز، بعد غلي العدس، وتضع المجدرة، وبعد أن يستوي الرز والعدس معاً، تفرم البصل وتقليه وتضعه على ما غدا، في نظرك، مجدرة، والمجدرة أكلة شعبية لا تدري لماذا لم تعممها في ألمانيا على الطلاب الألمان، كما كنت تعمم الحمص الذي كان بعض من زار الشرق من الألمان يعرفه.

كنت في طفولتك ترى المجدرة في مطاعم وكالة الغوث، كانت وجبة تقدمها الأمم المتحدة للاجئين، وسترتبط المجدرة باللجوء، وسترتبط أيضاً بأيام الفقر في المخيم، كانت الأسر كثيرة العدد تقدم هذه الوجبة لأفرادها باستمرار، وكانت وجبة شهية وبخاصة إذا ما تنوولت المجدرة ساعة استوائها، حارة دافئة، وكان اللبن أو السلطة إلى جانبها.

" والله زمان يا مجدرة " وتتذكر أن المجدرة وجبة يقدمها أنصار السجناء على أنها عشاء تقشف، يدفع من يشارك فيه مبلغاً من المال، قد يصل إلى خمسين شيكلاً، لمساعدة السجناء الفلسطينيين.

وستجد نفسك، لمدة أسبوع، تأكل المجدرة يومياً، ستجد نفسك نباتياً، أنت الذي، إذا لم يتناول اللحم يومياً، يعتقد أنه لم يتناول، ذاك النهار، وجبة طعام ستجد المجدرة مثل جدارية محمود درويش يوم كتبت عنها إحدى عشرة مقالة. لم تكتب عن جدارية محمود درويش مجبراً، كتبت لأن النص حرضك على الكتابة، ولكنك أخذت تطهو المجدرة لأن لا بديل لها، وتكرر: " والله زمان يا مجدرة "، وتفتقد السلطة وتفتقد اللبن، لأن لا البندورة والخيار ولا اللبن بمتناول اليد.

***

ستمر الأيام قاسية صعبة. ستصغي إلى أخبار صمود مخيم جنين. ستسمع كلاماً عن سقوط المدينة السريع يشبه الكلام الذي قيل عن سقوط مخيم بلاطة السريع، يتكرر كلام عن مخيم من كرتون، وعن مدينة من كرتون، ولكن عن مخيم آخر من نار، وسيدخل مخيم جنين التاريخ من باب مشرف، باب رفض الاحتلال، يشبهه بعض الناس بأنه (مسادة) الفلسطينية، وينعته الرئيس ياسر عرفات (جنين غراد). وتسمح سلطات الاحتلال لأهل المدينة، بعد أسابيع عديدة، بالتجول لساعات محدودة، حتى يشتري سكانها ما تيسر لهم من مواد غذائية، وتبدو المدينة مدينة أشباح. ثمة دمار في أماكن عديدة. ثمة شوارع متسخة من يَسِرْ فيها لساعة يعد إلى بيته كمن عاد من صحراء، أشعث أغبر سرعان ما يحتاج إلى حمام، ولن يمر يوم آخر حتى تتساقط الأمطار وتغدو شوارع المدينة شوارع ترابية طينية، كأنما تأخرت أمطار آذار لتسقط في نهاية نيسان، كأنما كانت المدينة بحاجة إلى أن ينقلب صيفها شتاها ولم تكن توافق السائق الذي قال: من كثر بغاها انقلب صيفها شتاها " لم توافقه لأن مقاومة الاحتلال ليست بغاءً إطلاقاً.

تبدو نابلس خارجة من حرب حقيقة، وتسأل نفسك: إذا لم تكن حرباً حقيقية، فماذا تكون إذن؟ وتعود بك الذاكرة إلى حرب حزيران 1967، لم يدمر من المباني، يومها، أي مبنى، جرت المعركة على أطراف المدينة، في وادي التفاح تحديداً، واستسلمت المدينة. رفعت الأعلام البيضاء، ليدخلها الجنود الإسرائيليون آمنين. ولن تمر أيام قليلة، أيام ثلاثة حتى رأيت ملصق خمسة وسبعين شهيداً، وجوه تعرفها وأخرى لا تعرفها. سقط أكثر هؤلاء دفاعاً عن المدينة، وسقط بعض هؤلاء في لحظة عابرة كانوا فيها صيداً سهلاً لقناص أو لطائرة الأباتشي التي ظننتم، وهم فوق سطوح منازلهم، يريدون مقاومة الاحتلال. لن تمر أيام ثلاثة على

انسحاب قوات الغزو حتى تلملم المدينة جراحها، وتنطلق أول تظاهرة يعلن المشاركون فيها عن تصميمهم على مقاومة الاحتلال. يقرون بأنهم هزموا، ولكنهم لم يدمروا. ما زالت الإرادة إرادة، كأن المشـــــاركين يكررون، بوعي أو دون وعي، مقولة عجوز همنجواي في روايته " الشيخ والبحر "، كأنهم مقتنعون بالمقولة اقتناعاً تاماً: قد يهزم الإنسان ولكن الإرادة لا تدمر. كأنما أرادوا أن يقولوا لشارون: لا للاحتلال ولا للسور الواقي. وسينتهي ربيع 2002 الذي بدا في بدايته صيفاً حاراً، سينتهي شتاءً ماطراً ولتبدأ المقاومة من جديد.

نابلس2005: تداعيات!!

الخميس صباحاً تغادر المنزل في العاشرة. تستقل السيارة إلى المدينة، وتتبادل حديثاً عابراً مع السائق. السيارات كثيرة والركاب قلة، ومنذ فترة وأنت تصغي إلى السواقين يعبرون عن امتعاضهم مما يجري. السيارات أكثر من البشر. سيارات مرخصة وأخرى غير مرخصة. سيارات يملكها أصحابها، وأخرى مسروقة. هذه تعمل وهذه تعمل، والذي يدفع للحكومة يعامل مثل الذي لا يدفع لها. والله أعلم أين هي الحكومة؟!

تسأل السائق إنْ كانت الأوضاع في المدينة على ما يرام، إذ المدينة كل يوم في شأن، فيجيبك أن الأوضاع هادئة. تكرر: كل شيء هادئ على الجبهة الغربية، ولا شيء هادئ هنا. ولكن السائق لا ينسى المقارنة بين حركة اليوم وحركة الأمس. يخبرك أن حركة اليوم قليلة. هذا يعني أن الركاب قليلون. أن الناس في بيوتها. أن أهل القرى لم يأتوا إلى المدينة، ولا يَنْسى الإشارة إلى الجامعة، فيوم الخميس يعني هدوءاً وقلة أرزاق. تشرح له الوضع. تقول له: في الجامعة عشرة آلاف طالب على الأقل، وكل طالب يحتاج إلى ركوب السيارة مرة أو مرتين. أنا مثلاً، تقول له: اصعد السيارة من شرق المدينة إلى الدوار، ومن الدوار إلى الجامعة، ويوم الخميس أختصر، لأنني لا أذهب إلى الجامعة. أذهب فقط إلى وسط المدينة.

المدينة هادئة. لا قوات احتلال ولا شهداء ولا مناسبات وطنية. آخر خميس في تموز. الجو حار منذ الصباح، وربما كان هذا سبباً من أسباب عدم اكتظاظ شوارع المدينة، وربما لأن العاشرة وقت مبكر لبعض المواطنين. سوق الخضار يكتظ بالبضاعة المعروضة، والفواكه كثيرة، وكما يقولون بالعامية: " على قفا من يشيل "، ولا تحتاج إلا إلى مالٍ وجسد خال من الأمراض حتى يتلذذ بالتهامها، هذه الفواكه التي تغري الناظرين.

وفي آخر تموز هذا تلحظ الفواكه الخاصة به تحديداً. أينما سرت في وسط المدينة تجد باعة الصبر والتين. سلال كثيرة معروضة. " سطول " سوداء ذات حجم وسط، ومربعات من النايلون التي يتسع الواحد منها للكيلو أو كيلو ونصف، والأسعار بدأت تتراجع وتغدو معقولة، فسطل الصبر يباع الآن بعشرة شواقل، خلافاً للأسبوع الذي سبقه، حيث بيع بخمسة عشر شيقلاً، والنوعية بدت أيضاً أفضل، فالصبر الأخضر القاسي الصلب بدأ ينضج، بسبب الحر، ويتحول إلى برتقالي لين.

تذهب إلى مكتب الجريدة. ترسل مقالك الأسبوعي من هناك. تصغي إلى مجدي يتحدث عن التطورات التي ألمت بالمكتب. يحدثك بفرح عن ترقيته ووظيفته الجديدة. يخبرك عن أحوال بعض موظفي الجريدة من معارفه. هذا استقال، لأنه يعمل في وظيفة أخرى، وذاك أيضاً استقال، لأنه وفر مبلغاً من المال، مكنه من فتح (كوفي شوب) في رام الله. الأهم من هذا ما ألم بمكتب الجريدة في نابلس. يخبرك أنه سيغدو قسمين، في كل قسم أربعة موظفين. هذا يعني أن الأمور بدأت تعود إلى مجاريها، فمنذ خمس سنوات كان المكتب غير ما أخذ يبدو عليه منذ بداية انتفاضة الأقصى. كان هناك عدد من الموظفين، ربما وصل إلى أربعة أو خمسة. وكانت الجريدة تصدر ملاحق عديدة. كان عدد صفحاتها ارتفع ووصل إلى خمسين، وأما في انتفاضة الأقصى، فقد قل عدد الموظفين وقل عدد صفحات الجريدة. لم تعد ترى في مكتب الجريدة، حين تزورها، سوى موظفين، أو موظف واحد، وبلغ عدد صفحاتها في أوج الانتفاضة ست عشرة صفحة فقط. اختفى عدد من الملاحق، ولم تعد الجريدة تدفع مكافآت لكتاب بعض الصفحات، وتراجع حضور الثقافة فيها، واختفت صفحات معينة، ولم يعد ملحق الخميس يصدر.

تغادر مكتب الجريدة. تسير في شوارع المدينة، وسرعان ما تذهب إلى المقهى، تشتري الجريدة وتقرأ بعض الأخبار فيها. تتصفح عناوين المقالات. تقرأ بعضها. وتراقب الناس غادين رائحين محملين بأكياس الخضار والفواكه. الجلوس في مقهى، على الرصيف، شيء رائع. تتابع حركة الناس. تخرج من الغرف إلى عالم رحب واسع. كأن الغرفة قبر، والرصيف مدى واسع. حياة. تأمل في البعيد. عالم لا حدود له. وتلعن الحدود كلها.

النادل الذي أحضر لك ما طلبت، جلس بعد نصف ساعة إلى جانبك. بدا رجلاً متعباً. بدا كهلاً، على الرغم من أنه لم يتجاوز الخامسة والخمسين، كما أخبرك. يحدثك النادل عن همومه. عما حدث معه. يعبر عن امتعاضه مما يجري. يخبرك أن الأوضاع على غير ما يرام. يعطيك مثلاً على ذلك. يتحدث عن العمل في المقهى، والعمل فيه قبل انتفاضة الأقصى. سابقاً، يقول لك، كان الزوار كثيرين. كنا نعمل (شفتين) – أي فترتين –. يقول لك: كنت أعمل حتى الثانية عشرة ظهراً، ثم أغادر. كان هناك زبائن. أما الآن فهذا غير وارد. الآن بالكاد نستطيع تحصيل ما يطعمنا. وأنت ترى. توافقه على ذلك، وتحدثه عن مطعم أبي العلاء الذي يشوي اللحم. تقول له: قبل انتفاضة الأقصى كنت أذهب إلى المطعم، وأنتظر نصف ساعة حتى أحصل على الطعام، هذا إذا وجدت طاولة فارغة، أما منذ انتفاضة الأقصى فأذهب ولا أجد إلا زبوناً واحداً، هذا إذا كان هناك زبون.

النادل الذي بدا مهموماً حزيناً وهو يتحدث عن قلة العمل أخذ يتحدث عن أشياء تقلقه، ربما أكثر من قلة العمل. أخذ يتحدث عن الأوضاع الصعبة التي يعاني منها الناس الآن. تحدث عن الجيل الجديد، وطلب من الله أن يرحمه، فهذا الجيل لم يشهد إلا العنف والموت والقتل والاجتياح المتكرر للمدينة.

يخبرك النادل عن ابنه وما ألم به. ابنه بائع على دوار المدينة. قبل أسابيع كان النادل عائداً من مكان عمله، من المقهى، إلى بيته في البلدة القديمة، وهناك، قرب بيته كان هناك هرج ومرج. كان الناس مجتمعين، فثمة مشكلة ما بين طرفين، بين مجموعة من الشباب وابنه. ابنه قوي الشكيمة، والشباب ليسوا، كما أخبرك، أنداداً له. هم كثر صحيح، هم أربعة صحيح، ولكن ابنه صلب قوي. وحين عرف بالمشكلة جمع الطرفين وأصلحهما. يقول لك النادل بصوت تلحظ فيه قدراً من الحزن والانكسار: أنا الرجل البالغ خمسة وخمسين عاماً، أصلح بين الطرفين وأبوس راس كل واحد من الأربعة، أنكسر لهم، لا لأنني ضعيف، أو لأن ابني كذلك، وإنما لأنني لا أريد أن تكبر المشكلة، فالكل يعرف ما آلت إليه الأوضاع، والسلاح بيد حامله قاتل، ومن لا يحمله قد يضيع بشربة ماء، حتى لو كان سيد الرجال، حتى لو كان شجاعاً. يخبرك النادل أنه أنفق الليل أكثره وهو يصلح بين الطرفين. يقول لك: لم تنته المشكلة إلا في الواحدة صباحاً.

تريد أن تحدثه عن أحداث شهدتها المدينة، ولكنه يطلب منك أن تصغي إليه، فالمشكلة التي اعتقد أنها انتهت لما تنته. يحدثك عن ابنه الذي ذهب في اليوم التالي إلى مكان عمله، كما لو أن الأمر، طبيعي. ويفاجأ الرجل حين يسمع ما حدث. ذهب الشباب الأربعة إلى مكان عمل ابنه، وأطلقوا الرصاص على ساقه. وهكذا اضطر لأن يصطحبه إلى عمان ليعالجه هناك. تسأله عن أوضاعه الآن، فيجيبك أنه ما زال يعاني، وتسأله ماذا حدث بعد لك مع الشباب الأربعة. وفيما إذا كانت المشكلة حلت بطريقة ما.

يحدثك الرجل أنه رفض أي حل، ما لم يطبق قانون العين بالعين والسن والسن، والبادئ أظلم. يقول لك: إنه أصر على أن يطلق النار على ساق من أطلق النار على ساق ابنه، ولا مناص من هذا. تسأله: وهل أطلقت النار على ساق الجاني؟ فيجيبك بالإيجاب.

في أثناء الحديث تقص عليه قصة أصغيت إليها قبل عشرة أيام. لم تكن شاهداً على الحدث، وإنما استمعت إلى زميل لك يقص عليك بعض ما شاهد هو. سائقان اثنان من سواقي السيارات العمومية يقتتلان من أجل راكب يزعم كل منهما أن الراكب أعطاه إشارة ليصعد معه. يحاول السواقون فض النزاع، ينجحون ابتداءً، ولكنَّ السائقين يواصلان العراك، يستل كل واحد

منهما سكيناً، ويهددان السواقين/ من يقترب سوف يطعن. ويجلس السواقون في حافلاتهم يراقبون المبارزة الرومانية. طبعاً لم يكن أي واحد منهما (سبارتاكوس) ليحرر روما من الأسياد أو ليحرر المدينة من الاحتلال. تنتهي المعركة بجراح السائقين، كانت جراح أحدهما خطيرة. ويقول لك النادل إنه سمع بالقصة.

يغادر النادل لكي يلبي طلبات زبائن جدد، وتغادر أنت لتسير في شوارع المدينة. لم تكد تبعد عشرين متراً، وكنت تسير ببطء شديد، حتى تجاوزتك مجموعة من المقنعين يحملون بأيديهم الرشاشات. لم يطلقوا النار، وهم سائرون، وإنما كانوا يسيرون، كما لو أنهم في (مارش) عسكري. سبعة على اليمين وسبعة على اليسار. تنظر إليهم وإلى ملابسهم، وتقدر أنهم شباب لا يتجاوز الواحد منهم العشرين أو الخامسة والعشرين من العمر. وتنشد لهم السلامة، وتطلب من الله ألا يكون هناك قوات إسرائيلية، فإذا ما حدثت معركة كانت نتائجها وخيمة، ولا تدري من يقتل ومن يستشهد، من الشباب ومن المارة أيضاً، فالأخيرون هم معرضون أيضاً معضون للخطر.

في أثناء جلوسك على المقهى كنت استمعت إلى صوت رصاص ثمة من أطلق أربع رصاصات من مكان قريب، أتبعهما بأربع رصاصات أخرى من مكان أبعد. وصوت الرصاص غدا، في الفترة الأخيرة، عادة. يطلق الإسرائيليون الرصاص حين يجتاحون المدينة، ويطلق المسلحون النار إذا ما كان هناك احتفال ما أو اشتباك مع إسرائيليين نجم عنه شهيد ما، ويطلق الناس الرصاص إذا ما كان هناك حفل عرس، أو إذا ما كان هناك قريب نجح في امتحان التوجيهي.

ذات جمعة، في بداية تموز أو نهاية حزيران، تذهب لتلبي دعوة أحد معارفك، تذهب لحضور حفل زفاف، وسرعان ما تنسحب، فأحد الحضور بدأ بإطلاق الرصاص من مسدسه، ولم يكتف بذلك، وهو الذي لم يتجاوز العشرين من العمر، وإنما أعطى المسدس لشاب صغير، لا يتجاوز الرابعة عشرة من عمره، ليطلق الرصاص ابتهاجاً. وبعد ذلك بأيام، حين أعلنت نتائج التوجيهي، أطلق أحد معارفك النار ابتهاجاً بنجاح أخيه، وأصاب نفسه بطلق فدخل إلى المشفى، وأجريت له عملية استمرت ساعتين ونصف، وهكذا انقلب الفرح إلى غم وحزن.

تقول لأحد معارفك: لا ندري من أين تأتينا المصائب! إذا لم تأتنا من الاحتلال أو أوجدناها نحن. ويقص عليك قصة أحد المواطنين من قرية سالم. كان هذا المواطن الذي يعمل في إسرائيل عائداً، مع زوجته وطفلته التي ولدت حديثاً، إلى قريته، وفي الطريق كان هناك حاجز إسرائيلي طيار. قال الضابط للمواطن: المرور ممنوع، عد من حيث أتيت. ولم يعد المواطن. أراد

أن يقول للضابط إن زوجته ولدت حديثاً، وأنه عائد من المشفى، فأخبره الضابط أن يعود إلى المشفى. ولم يكتف بالكلام. أطلق النار على ساقه، وأعاده إلى المشفى جريحاً.

تواصل السير في شوارع المدينة. تذهب إلى الدوار فترى القوات الفلسطينية بأسلحتها، وترى المقنعين الأربعة عشر وتقول: الله يستر. تواصل السير. وتطلب من زميل لك تراه أن يواصل سيره أيضاً، فالأوضاع لا تشجع على البقاء في المكان. ربما يبدو الجو متوتراً. تبصر رجلين يحملان البنادق، ولا يختلف شكلهما عن شكل يهود أوروبيين كثيراً. تسأل نفسك: ماذا لو كان هذان من المستعربين؟ ما من شك ستكون هناك معركة حامية، وسيصاب الناس بالذعر وسيهربون، ولا تدري نفس بأي ذنب قتلت.

في أثناء العودة إلى المنزل تتحدث والسائق الحمساوي عما يجري. يخبرك عن صوت رصاص كثيف وقوي حدث قبل نصف ساعة. تقص عليه ما رأيت، وتفصح عن مخاوفك مما جرى قائلاً: ماذا لو دخل جنود الاحتلال أو كان هناك مستعربون؟ ولا يعجب كلامك السائق الحمساوي. يقول لك: لن يحدث هناك اشتباك بين هؤلاء والجيش. وأنت لا تستطيع أن تكتب كل ما قاله السائق، فقد يكون صحيحاً وقد لا يكون. ويصر السائق على أن قوات الاحتلال لا تهتم بمن يظهرون علناً. إنها تهتم بمن لا يظهرون، من حملة السلاح. حين تعرف أين هؤلاء تدخل قواتها وتعتقلهم أو تقتلهم وينتهي الأمر.

في شوارع نابلس دار، في الأسبوعين الأخيرين، حديث عن الاقتحام الأخير لقوات الاحتلال للمدينة. قد يكون الحديث صحيحاً، وقد لا يكون. لكنه حديث دار على الألسن على أية حال. بعض الناس قالوا إن هناك شحنة من الأسلحة وصلت إلى المدينة، وعرفت قوات الاحتلال بالأمر، ولهذا دخلت المدينة، لكي تتأكد إن كان هذا السلاح سيستخدم ضدها أو لا. ولما لم تطلق رصاصة واحدة على القوات العسكرية الإسرائيلية التي هوجمت بالحجارة فقط، انسحبت هذه القوات وأيديها في الماء.

في المساء تذهب إلى المدينة. الشوارع فارغة إلا من بشر قليلين وسيارات قليلة، ومن عرس إسلامي لمائتين وعشرين شاباً، حفل زفاف جماعي يتحدث عنه الناس، منذ أيام ترى صورة هؤلاء معاً في ملصق يذكرك بالملصق الذي وزع وعمم في المدينة في نيسان 2002، حيث ضم صوراً لخمسة وسبعين شهيداً قتلوا في أثناء الاجتياح الإسرائيلي المدمر.

تشتري من المدينة ما تحتاج إليه من مواد غذائية، تشتري بضاعة محلية، وأخرى إسرائيلية أيضاً، وتعود بأكياس سوداء تضم ما أنتجته أيدي مواطنينا وأيدي أعدائنا. وتتواصل

الحياة في هذا الوطن الذي يؤول فيه كل شيء إلى خراب أو إلى ... لا تدري، فحتى اللحظة، ومنذ سنوات لا نعيش إلا الموت والقتل والدمار، سنوات قد تكون تخللتها سنوات أخرى تبدو الآن جميلة.

هل تقول: على هذه الأرض ما يستحق ... ما يستحق ماذا الحياة ... أم الممات؟

في الظهيرة، وأنت في المدينة، ربما تكرر بنبرة حزينة: على هذه الأرض ما يستحق الحياة. ربما تستبدل كلمة أخرى بكلمة الحياة، ولكنك في الصباح تبدو مثل الكتاب الرومانسيين الذين ينهون رواياتهم، بعد كل المآسي التي يتعرض لها شخوصها، بعبارة: وتشرق الشمس. في الصباح يبدو كل شيء هادئاً في المكان. تجلس إلى قرب شجرة الجوز، على الشرفة، ترتشف قهوتك، فيما الناس نيام، وثمة نسمة هواء خفيفة تنعش القلب.

في الصباح تكرر: على هذه الأرض ما يستحق الحياة، وما أن تغادر منزلك وتصل إلى المدينة وتصغي إلى حديث الناس، وتشاهد ما يجري، حتى تكرر العبارة بنبرة أخرى. نبرة حزينة.

صباح الجمعة 2005/7/29